عندك قلب

لماذا لم تحب؟

اسم الكتاب: عندك قلب (لماذا لم تحب؟)

اسم الكاتب: فوزى عطية الزيبق

تصميم الغلاف: عبدالله عباس

رقم الإيداع: 2023- 7018

الترقيم الدولى: 978- 977- 8960- 72- 3

كافة الحقوق محفوظة للناشر والمؤلف
لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقة، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابي مسبق من الناشر والمؤلف، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببعض الفقرات لغرض النقد والدراسة، طبقًا لما تحدده قوانين واتفاقات حقوق الملكية الفكرية.

عندك قلب

لماذا لم تحب؟

- قصص مُحِبِين حطَّمت الزمان والمكان.

- العِشق المُباح - فوائد العشق وأضراره.

- رحلة البحث عن المَحبوب الأعظم والجميل الأوحد.

فوزي عطية الزيبق

المقدمة

لَمَّا كان القلب لابد له من التعلق بمحبوب...

كان هذا السؤال

هل عرفتَ الحُب؟!

هل ذقتَ طعمه؟!

لا لا...

لا أقصد الحُب الأول...

ولا الأخير...

أقصد الحُب الكبير؟!

ربما يقضي البعض منَّا عُمره كله دون أن يعرف المحبوب الأعظم والجميل الأوحد.

ورغم أن ضحايا الحب كثيرة على مر العصور، فكم أحيا من موات النفوس، وكم أمات من أرباب القلوب (١)

إلا أن مَن تعرفوا على المحبوب الأعظم والجميل الأوحد قِلة...

(١) الحب فى القرآن، دكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي، ص: ١٠ بتصرف.

ولما كان الوقوع في الحب ربما يكون فجأة...

لأن طريقه مهما تضع عليه من علامات إرشادية ولافتات تحذيرية لن تمنع من النجاة...

وَالحُبُّ كَاللِصِّ لا يُدريكَ مَوعِدَهُ

لَكِنَّهُ قَلَّما كَالسارِقِ اِستَتَرا (٢)

ورغم أن الحب مغامرة غير مأمونة العواقب...

إلا أنه يبدو مُقدَّرًا على البعض أن يخوضها...

ويدخل جنّته وناره...

ويشرب حلوه ومُرّه...

ويذوق نعيمه وعذابه...

ويرتشف عِزّه وذله

وإذا كان قَرْص النحل فيه شفاء فضلاً عن عسله...

فكذلك الحب...

عذابه حلو...

---

(٢) إيليا أبو ماضي.

ورغم أن طريق الحب منحدر وعر..

إلا أنه «لا نُصحٌ ولا جُرح يُغَيِّرُ من مَداره؟!»

وهو مع وعورته مُمتِع... مُفرِح...

***

غير أنى أشترط على مَن يبدأ معنا رحلة الحب هذه، ألا يقف في بداية الطريق، أو في منتصفه، ويتركنا، إنما يستمر معنا إلى نهايته، لأني ما قصدت البداية ولا الوسط إلا للوصول إلى النهاية، نهاية الرحلة، التي هي نهاية الكتاب.

فإن كنت تقدر تكمل...

تعالَ نبدأ الرحلة...

لماذا اختص القلب بالحب دون غيره من الأعضاء؟!

هل القلب الذي يحب لا يعرف الكراهية؟

هل صحيح الحب أعمى؟!

ألم يقل الحديث الشريف: «حُبّك للشيء يُعمِي ويُصِم»؟!

ألم يقل القائل:

فوالله ما أدري أزيدت محبة

وحُسنًا على النسوان أم ليس لي عقل.

ماذا يفعل الحب بصاحبه؟

هل الحُب ترجمة لغريزة؟

أم منحة أعطِيت لأناس...؟

هل الحُب خداع ألوان كما يقول الدكتور مصطفى محمود؟

هل هو رياح عاتية تهبُّ ثم تهدأ وتسكن...؟

هل هو «كالسعال ليس من المستطاع إخفاؤه»([٣]).

هل لنا في الحب حيلة؟

ألم يعدل رسولنا الكريم بين نسائه في النفقة والقسمة، وفي التسوية بينهن في الحب قال:

«اللَّهمَّ هذا قَسمي فيما أملِكُ، فلا تلُمْني فيما تملِكُ ولا أملِكُ» يعني القلب.

هل صحيح أن «عذوبة الحب كامنة في عذابه»؟!

مَنْ لَمْ يَذُقْ ظُلْمَ الحَبيبِ كَظَلْمِهِ ([٤])

حُلْوًا فَقَدْ جَهِلَ الْمَحَبَّةَ وَادَّعى

هل مرور الأيام والليالي تُنسِي...

إذا مَا شِئْت أَن تسلى خَلِيلًا
فَأكْثر دونه عدد اللَّيَالِي

هل يغير الحب من طبيعة الإنسان وسلوكه؟
هل هو جَنّة كما يقال؟!

([٣]) هربرت.

([٤]) المراد بالظَّلم بفتح الظاء هو الرُّضاب. والرُّضاب: رغوة العسل، أو الريق، أو الريق المرشوف، أو قطع السُّكَّر، أو فُتات المسك.

في رحلتنا داخل طيات هذا الكتاب ربما نجيب على هذه الأسئلة وغيرها..

من تعريفات الحب: أنه «معاملة قلبية يشعر من خلالها المرء بِمَيلِه وانجذابه إلى الآخر.

والواقع المشاهد يخبرنا بأنه عندما يتمكن الحب في القلب بين شخصين، فإننا نجد آثار هذا الحب بادية في تعامل أحدهما مع الآخر، فتجد كلًا منهما يكثر من ذِكْر محبوبه، ويشتاق دومًا إلى رؤيته، ويرغب في الخلوة به، ويأنس بقربه، ويغضب من أجله، ويغار عليه... يُقرِّب مَن يحبه محبوبه، ويُبعِد مَن يُبعده، يطيع أوامره بسعادة وحبور، ويضحي من أجله، ويفرح بهداياه مهما صغرت» (٥).

والحُبُّ «ليس بمُنكر في الديانة، ولا بمحظور في الشريعة - كما يقول ابن حزم الأندلسي – إذ القلوب بيد الله عز وجل، وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير..» (٦).

(٥) كيف نحب الله ونشتاق إليه، مجدي الهلالي، ص: ٣ .
(٦) طوق الحمامة، ابن حزم الأندلسي، ص: ٥ .

ألم يشعر «العُشَّاق دومًا بأنهم مقهورون بقوة تشبه قوة القضاء والقدر التي لا تُرَدّ كما في قول أبي بكر الأصبهاني

ولم يكن باختيار لي فأتركُهُ

ولا اضطرارٌ أتاه القلبُ مقهورا

لكنه من أمور الله ممتنعٌ

في الوصف قدّره الرحمن تقديرا

وقد أوجز أحد الشعراء القدامى خصائص الحب في الأبيات التالية:

ألا ما الهوى والحب بالشيء هكذا
يدلّ به طوع اللسان فيوصفُ
ولكنه شيء قضى الله أنه
هو الموت أو شيء من الموت أعنفُ
فأوله سقمٌ وآخره ضنى
وأوسطه شوق يشفّ ويتلفُ
وروعٌ وتسهيدٌ وهَمٌّ وحسرةٌ
وَوَجْدٌ على وَجْدٍ يزيدُ ويضعفُ» (٧).

(٧) في الحب والحب العذري، د/ صادق جلال العظم، ص: ١٨، ١٩

والحقيقة أن «مَن عرف الحُبّ بالتجربة والمعاناة فهو يغني عن كل التعريفات..، كما أن مَن حُرِمَ هذه النعمة، بما فيها من مرارة وخيبة، لن تجديه النظريات المجردة نفعًا...، لأن العلم به قائم على التجربة الحية والمعاناة الوجدانية الشخصية المباشرة، وقد قال الإمام ابن حزم القول الفصل في هذا الموضوع حين كتب في رسالته المشهورة عن الحُبّ:

« دقَّت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة »» ([٨]).

([٨]) المصدر السابق، ص: ٩، ١٠

الحارث وبهيسة
قصة حُب لا ينساها الزمان

يحكى التاريخ عن حب الحارث بن عوف أشجع فتيان قبيلة مرة لِبَهيسة بنت أوس بن حارثة التي وضعته تحت الاختبار عدة مرات لِتَمتحن مدى حبه لها والتي لم تعطِهِ نفسها كزوجة إلا بعد أن برهان على تدلهه في حبها.

«فلم يكد الحارث بن عوف يقترب من عروسه حتى امتنعت عليه قائلة: «لا يصح هذا ونحن في جوار أبي»، فأمر الحارث بخلع الخيام وتحميل الجِمال وغادروا المكان.

وما أن أظلمت الدنيا حتى أمر الحارث بأن تنصب الخيام ليستريحوا الليل من وعثاء السفر، وحاول الحارث أن يعاشر عروسه معاشرة الأزواج ولكنها نهرته قائلة: «ما هذا؟ أتريد أن تعاملني معاملة جارية تشترى أو سبية تؤسر في الحرب؟

لن أسمح لك أن تقترب مني إلا بعد أن نحتفل بزواجنا بين قبيلتك وننحر الإبل والشياه للضيوف من كل القبائل».

فأمر الحارث بالرحيل وأسرع بالركب حتى وصلوا قبيلته وأسرع بدعوة الضيوف وأقام حفلًا كبيرًا ونحر الإبل والشياه كما طلبت إليه عروسه آنفًا. ثم اقترب الحارث منها يريد ما وعدته،

ولكنها ردّته عنها وقالت مُوَبِّخة: «تجد وقتًا لمداعبة النساء، والعرب في الخارج تسيل دماؤهم في مذابح القتال بين ذبيان وعبس قبيلة أمي. أسرع بالخروج وحاول الإصلاح بين القبيلتين المتنازعتين ثم عد لزوجتك التي تنتظر عودتك على أحر من الجمر».

فيركب الحارث إلى القبيلتين توًا ويقدم من ماله الخاص دية

كبيرة يقبلها الطرفان ويعود السلام بعد قتال عنيف دام بينهما أربعين عامًا. لقد أحصى الحارث عدد القتلى في كل من القبيلتين ووعد القبيلة التي زاد عدد قتلاها عن الأخرى بثلاثة آلاف جمل يدفعها لها من ماله خلال السنوات الثلاث القادمة كَدِية عن دم القتلى.

وعاد الحارث محاطًا بالإجلال والإكبار من الجميع إلى عروسه لتتقبله بالأحضان ولِيُنجِب البنين والبنات» (٩).

(٩) شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، ص: ٤٦٩، ٥٢٠ بتصرف.

تاج محل

ضريح محبوبة يزوره الملايين

بينما كان الأمير «شاه جهان» يمشي في السوق، ويمزح مع فتيات العائلات المرموقة، قابلَ «أرجوماند بانو بايغام» البالغة من العمر ١٥عامًا بينما يبلغ هو من العمر ١٦عامًا.

وعلى الرغم من أن الحب قد وقع من النظرة الأولى، إلا أنه لم يُسمح لهما بالزواج على الفور، فقد كان على الأمير أن يتزوج أولًا من «قندهارى بيغام»، وبالفعل رضخ الأمير لذلك القرار، لكنه بعدها تزوج من حبيبته التي أطلق عليها اسم ممتاز محل» ([١٠]).

وعلى غير عادة المُحِبين...

لم يُعبِّر «شاه جهان» مَلِك المغول في الهند عن حبه لزوجته في صورة قصيدة، وإنما عبَّر عن حبه لها في صورة تحفة معمارية تنطق بالجمال والروعة لتظل شاهدًا على مر الزمان

([١٠]) من مقال بعنوان: تاج محل وقصة الحب الأسطورية، موقع: نانرج، ٩٢- ١- ٢٠٢٠ بتصرف.

على عشقه لزوجته، ووفاءً لها، وتخليدًا لذكراها، وقد بلغ من عظمة هذا البناء أنه أُعتُبِر إحدى عجائب الدنيا.

فعلى ضفة نهر يامونا بالهند تم تشييد أعظم ضريح في العالم «بدأ بناؤه في حوالي عام ١٦٣٢ حيث تم توظيف أكثر من ٢٠ ألف عامل من الهند وبلاد فارس والإمبراطورية العثمانية وأوروبا في هذه العملية. وقد استمر بناء المجمع الذي تبلغ مساحته ٤٢ فدانًا نحو ٢٢ عامًا.

وكان «شاه جهان» ينوي في الأصل بناء ضريح آخر عبر النهر لإيواء رفاته. وكان من المفترض أن يُشيد ضريحه من الرخام الأسود وأن يكون متصلًا بتاج محل بواسطة جسر، ولكن تم خلعه في عام ١٦٥٨ من قبل ابنه أورنغزيب، وسجن لبقية حياته في قلعة أغرا.

وللضريح قبة مركزية مهيبة يصل ارتفاعها إلى حوالي ٧٣ مترًا، ويعكس الرخام الأبيض المُستخدم في بناء الضريح درجات الألوان وفقاً لشدة ضوء الشمس أو ضوء القمر، وداخله غرفة رخامية مثمنة الأضلاع مزينة بنقوش منحوتة وأحجار مصقولة تسمى بيترا دورا.

ويوجد في تلك الغرفة تابوتان زائفان لممتاز محل وشاه جهان حيث تقع المقبرتان الحقيقيتان في مكان ما قرب الحديقة، وتقف مآذن الضريح الأربعة الأنيقة بعيدًا عن المبنى المركزي في كل ركن من الزوايا الأربع للقاعدة المربعة للضريح» (١١).

كما «يحتوي بناء تاج محل على أكثر من أربعين نوعًا من الأحجار الكريمة، ويبلغ ارتفاع المبنى ٦١مترًا، يكسوه الرخام الأبيض، وكتب عليه آيات قرآنية باللون الأسود، وتم تزيين الجدران بالعقيق والفيروز، وتحيط بالمبنى حديقة رائعة من حيث التنسيق والتصميم، وتضم نوافير وأشجار

من مختلف دول العالِم» (١٢).

و «كانت خطة «شاه جهان» أن يجعل حديقة تاج محل جنة على الأرض، فكانت تحتوي على أربع أرباع مقسمة على أربعة أنهار تتجمع عند بركة مركزية، وتقسيم الأنهار هذا مستوحى من العقيدة الإسلامية، وصورة رمزية عن أنهار الجنة» (١٣).

(١١) من مقال بعنوان: ٢٠ألف عامل جسدوا قصة حب فى إحدى عجائب الدنيا، موقع: bbc عربي، ٢٤- ١-٢٠٢٢

(١٢) من مقال بعنوان: تاج محل وقصة الحب الخالدة، موقع عربي٢٢.

(١٣) من مقال بعنوان: تاج محل وقصة الحب الأسطورية، موقع: نانرج، ٩٢- ١- ٢٠٢٠

جميل وبثينة
عندما يحطم الحب الزمان والمكان

عندما يأتي الحديث عن الحب من مستشرقة ألمانية معروفة بالإنصاف والاعتدال، يكون الكلام له قيمة، في كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب»، تقول الدكتورة زيغريد هونكه:

«عرف العرب الحب نقيًا عفيفًا، فهو حب عُذري يشبه إلى حد كبير الحب الأفلاطوني عند الإغريق. ومن أمثلة ذلك الحب العذري يروى لنا تاريخ العرب قبل الإسلام قصة جميل وبثينة اللذين لم يستطيعا التغلب على عداء قومهما، ولكن حبهما يحطم كل زمان ومكان ويبقى خالدًا لا يقضي عليه الموت نفسه» ([١٤]).

([١٤]) شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، ص: ٥٢٠

ومما قاله جميل في حب بثينة:

إِذا قُلتُ ما بي يا بُثَينَةُ قاتِلي
مِنَ الحُبِّ قالَت ثابِتٌ وَيَزيدُ
وَإِن قُلتُ رُدّي بَعضَ عَقلي أَعِش بِهِ
تَوَلَّت وَقالَت ذاكَ مِنكَ بَعيدُ
فَلا أَنا مَردودٌ بِما جِئتُ طالِباً
وَلا حُبُّها فيما يَبيدُ يَبيدُ
سَبَتني بِعَينَي جُؤذُرٍ وَسطَ رَبرَبٍ
وَصَدرٌ كَفاثورِ اللُجَينِ وَجيدُ
يَموتُ الهَوى مِنّي إِذا ما لَقيتُها
وَيَحيا إِذا فارَقتُها فَيَعودُ
يَقولونَ جاهِد يا جَميلُ بِغَزوَةٍ
وَأَيَّ جِهادٍ غَيرُهُنَّ أُريدُ
لِكُلِّ حَديثٍ بَينَهُنَّ بَشاشَةٌ
وَكُلُّ قَتيلٍ عِندَهُنَّ شَهيدُ

عَلِقتُ الهَوى مِنها وَليداً فَلَم يَزَل

إِلى اليَومِ يَنمي حُبُّها وَيَزيدُ

فَلَو تُكشَفُ الأَحشاءُ صودِفَ تَحتُها

لبَثنَةَ حُبٌّ طارِفٌ وَتَليدُ

قيس ولبنى

بدأت قصة حب قيس بن ذريح ولبنى بنت الحباب عندما «ذهب قيس لبعض حاجاته – إذ كان يسكن البادية، فمَر بِحَيِّها وقد احتدم الحر، فاستسقى من الخيام، فبرزت إليه فتاة مديدة القامة، بهية الطلعة، عذبة الكلام، فناولته إداوة ماء، فلما رُوِيَ وهَمَّ بالذهاب قالت له: ألا تبرد وترتاح عندنا؟ فأجابها، فمهدت له وطاءً وقدمت إليه ما يحتاج إليه.

وجاء أبوها فلما وجده رحَّب به ونحر له جزورًا، فأقام عندهم بياض اليوم. ثم انصرف وهو أشغف الناس بها، فجعل يكتم ذلك إلى أن طما به الحب، فعاد إلى زيارتها، وشكا إليها ما يجد من حبها، فوجد عندها أضعاف ذلك، فانصرف وهو في أشد الغبطة.

.. تزوجها، وعاش المحبان معًا عشر سنوات، تبين منها أن لبنى عاقر، وكان والدا قيس يرغبان في نسله، فعرضا عليه تطليقها والتزوج من أخرى، فامتنع امتناعًا يؤذن باستحالة ذلك، وأخذ يدافعهما، إلى أن أقسم أبوه لا يكنه سقف أو يطلق قيس لبنى.

وكان قيس شديد الحب لِلبنى، فكان إذا اشتد الهجير خرج إلى أبيه وأظله، واصطلى هو بالشمس، فإذا جاء الظل تركه ودخل إلى لبنى يبكي.

واطرد هذا الحال مدة، حتى قدر في النهاية أن يطلقها...، ولم يبقَ لِقَيس سوى الحسرة والندم والتفجع، فكان يؤلف القصائد يذكر حبه لها، وأيامه الماضية، ومن ذلك قوله:

إِن تَكُ لُبنى قَد أَتى دونَ قَربِها

حِجابٌ مَنيعٌ ما إِلَيهِ سَبيلُ

فَإِنَّ نَسيمَ الجَوِّ يَجمَعُ بَينَنا

وَنُبصِرُ قَرنَ الشَمسِ حينَ تَزولُ

وَأَرواحُنا بِاللَيلِ في الحَيِّ تَلتَقي

وَنَعلَمُ أَنّا بِالنَهارِ نَقيلُ

وَتَجمَعُنا الأَرضُ القَرارُ وَفَوقَنا

سَماءٌ نَرى فيها النُجومَ تَجولُ» (١٥).

(١٥) الحب فى التاريخ، سلامة موسى، ص: ٢٧، ٢٨ بتصرف.

كُثَير وعَزة

تعرف كُثَير على عَزة عندما «مَرّ بِنِسوة ومعه جلب غنم، فأرسلن إليه عزة وهي صغيرة، فقالت: يقلن لك النسوة بعنا كبشًا من هذه الغنم وأنسنا بثمنه إلى أن ترجع. فأعطاها كبشًا وأعجبته، فلما رجع جاءت امرأة منهن بدراهمه، فقال: وأين الصبية التي أخذت مني الكبش؟

قالت: وما تصنع بها؟ هذه دراهمك.

قال: لا أخذ دراهمي إلا ممن دفعتُ الكبش إليها، وخرج وهو يقول:

قَضى كُلُّ ذي دينٍ فَوفّى غَريمَهُ

وَعَزَّةُ مَمطولٌ مُعنّىً غَريمُها

وأخذ من ذلك الوقت يعشقها ويتغزل بها، يؤلف القصائد في وصفها ومدحها.

.. إلا أن كُثُير لم يتزوجها، لأن العرب كانت تستقبح تزويج بناتها لمن يشبب بهن، وكانت على الرغم من زواجها تلتقي

خلسة بِكُثَير فيطفئ نار شوقه، ويؤلف القصائد يبرد بها من غليل الحب» (١٦).

ومما قاله في حبها:

خَليلَيَّ هَذا رُبعُ عَزَّةَ فَاِعقِلا
قلوصَيكُما ثُمَّ اِبكِيا حَيثُ حَلَّتِ
وَمُسّا تُرابًا كَانَ قَد مَسَّ جِلدَها
وَبيتا وَظِلاَ حَيثُ باتَت وَظَلَّتِ
وَلا تَيأَسا أَن يَمحُوَ اللهُ عَنكُما
ذُنوبًا إِذا صَلَّيتُما حَيثُ صَلَّتِ
وما كنت أَدري قَبلَ عَزَّةَ ما البُكا
وَلا مُوجِعاتِ القَلبِ حَتَّى تَوَلَّتِ
وَما أَنصَفَت أَما النِساءُ فَبَغَّضَت
إِلينا وَأَمَّا بِالنَوالِ فَضَنَّتِ
فَقَد حَلَفَت جَهدًا بِما نَحَرَت لَهُ

(١٦) **الحب في التاريخ، سلامة موسى، ص: ٣٣، ٣٤.**

قُرَيشٌ غَداةَ المَأزَمينِ وَصَلّتِ
أُناديكَ ما حَجَّ الحَجِيجُ وَكَبَّرَت
بِفَيفاء آل رُفقَةٌ وَأَهَلَّتِ
وَما كَبَّرَت مِن فَوقِ رُكبةَ رُفقةٌ
وَمِن ذي غَزال أَشعَرَت وَاِستَهَلَّتِ
وَكانَت لِقَطعِ الحَبلِ بَيني وَبَينَها
كَناذِرَةٍ نَذرًا وَفَت فَأَحَلَّتِ
فَقُلتُ لَها يا عَزَّ كُلُّ مُصيبَةٍ
إِذا وُطِّنَت يَومًا لَها النَفسُ ذلَّتِ
وَلَم يَلقَ إِنسانٌ مِنَ الحُبَّ مَيعَةً
تَعُمُّ وَلا عَمياءَ إِلّا تَجَلَّتِ
فَإِنَ سَأَلَ الواشُونَ فِيمَ صَرَمتُها
فَقُل نَفس حُرٍ سُلِّيَت فَتَسَلَّتِ
كَأَنّي أُنادِي صَخرَةً حِينَ أَعرَضَت
مِن الصُمِّ لو تَمشي بِها العُصمُ زَلَّتِ
صَفوحٌ فَما تَلقاكَ إِلَّا بخيلَةً

فَمَن مَلَّ مِنها ذَلِكِ الوَصلَ مَلَّتِ
أَباحَت حِمًى لَم يَرعَهُ الناسُ قَبلَها
وَحَلَّت تِلاعًا لَم تَكُن قَبلُ حُلَّتِ
فَلَيتَ قَلوصي عِندَ عَزَّةَ قُيِّدَت
بِحَبلٍ ضَعيفٍ غُرَّ مِنها فَضَلَّتِ
وَغودِرَ في الحَيِّ المُقيمينَ رَحلُها
وَكانَ لَها باغٍ سِوايَ فَبَلَّتِ
وَكُنت كَذي رِجلَينِ رِجلٍ صَحيحَةٍ
وَرِجلٍ رَمى فيها الزَمانُ فَشلَّتِ
وَكُنتُ كَذاتِ الظَلعِ لَمّا تَحامَلَت
عَلى ظَلعِها بَعدَ العِثارِ اِستَقَلَّتِ
أُريدُ الثَوَاءَ عِندَها وَأَظُنُّها
إِذا ما أَظَلنا عِندَها المُكثَ مَلَّتِ
يُكَلِّفُها الخَنزيرُ شَتمي وَما بِها
هَواني وَلَكِن لِلمَلِيكِ اِستَذَلَّتِ
هَنيئًا مَرِيئًا غَيرَ داءٍ مُخامِرٍ

لِعَزَّةَ مِن أَعراضِنا ما اِستَحَلَّتِ

وَوَاللهِ ما قارَبت إِلا تَباعَدَت

بِصَرمٍ وَلا أَكثَرتُ إِلّا أقلّت

وَلي زَفراتٌ لَو يَدُمنَ قَتَلنَني

تَوالي الَّتي تَأتي المُنى قَد تَوَلَّتِ

وَكُنّا سَلَكنا في صَعودٍ مِنَ الهوى

فَلَمّا تَوافَينا ثَبَت وَزَلَّتِ

وَكُنّا عَقَدنا عُقدَةَ الوَصلِ بَينَنا

فَلمّا تَواثَقنا شَدَدتُ وَحَلَّتِ

فَإِن تَكُنِ العُتبى فَأَهلًا وَمَرحَبًا

وَحُقَّت لَها العُتبَى لَدينا وَقَلَتِ

وَإِن تَكُنِ الأُخرى فَإِنَ وَراءَنا

بِلادًا إِذا كَلَّفتُها العيسَ كَلَّتِ

خَليلَيَّ إِن الحاجِبِيَّةَ طَلَّحَت

قَلوصَيكُما وَناقَتي قَد أَكَلَّتِ

فَلا يَبعُدَن وَصلٌ لِعَزَّةَ أَصبَحَت

بِعَاقِبَةٍ أَسبابُهُ قَد تَوَلَّتِ

أَسِيئي بِنا أَو أَحسِني لا مَلومَةً

لَدِينا وَلا مَقلِيةً إِن تَقَلَّت

وَلَكِن أَنيلي وَاِذكُري مِن مَودَةٍ

لَنا خُلَّةً كانَت لَدَيكُم فَضَلَّتِ

وَإِنّي وَإِن صَدَّت لَمُثنٍ وَصادِقٌ

عَلَيها بِما كانَت إِلَينا أَزَلَّتِ

فَما أَنا بِالدَاعي لَعَزَّةَ بِالرَدى

وَلا شامِتٍ إِن نَعلُ عَزَّةَ زَلَّتِ

فَلا يَحسَبِ الواشُونَ أَنَّ صَبابَتي

بِعَزَّةَ كانَت غَمرَةً فَتَجَلَّتِ

فَاَصبَحتُ قَد أَبلَلتُ مِن دَنَفٍ بها

كَما أُدنِفَت هَيماءُ ثُمَّ اِستَبَلَّتِ

فَوَاللهِ ثُمَّ اللهِ لا حَلَّ بَعدها

وَلا قَبلَها مِن خُلَّةٍ حَيثُ حَلَّتِ

وَما مَرَّ مِن يَومٍ عَلَيَّ كيومِها

وَإِن عَظُمَت أَيامُ أُخرى وَجَلَّتِ
وَحَلَّت بِأَعلى شاهِقٍ مِن قُؤادِهِ
فَلا القَلبُ يَسلاها وَلا النَّفسُ مَلَّتِ
فَوا عَجَبًا لِلقَلبِ كَيفَ اِعتِرافُهُ
وَلِلنَفسِ لَمّا وُطِّنَت فَاِطمَأَنَّتِ.

الحُب العُذري

من الصحراء إلى القصور

يُنسَب الحبُّ العُذري إلى قبيلة عُذرة في الجاهلية، عن إحدى فتياتها يقول سفيان بن زياد: «قلتُ لامرأة من عُذرة - ورأيت بها هوى غالباً، خفت عليها الموت منه -: ما بال العشق يقتلكم معاشر عذرة من بين أحياء العرب؟ فقالت: فينا جمالٌ، وتعفُّفٌ، والجمال يحملنا على العفاف، والعفاف يورثنا رقَّة القلوب، والعشق يُفنِي آجالنا، وإنَّا نرى عيونًا لا ترونها» (١٧).

ولم يقف الحُب العذري عند البادية بل تقدم «ليدخل قصور الخلفاء. فعباس بن الأحنف في بلاط هارون الرشيد عام ٨٠٠م لا يختلف كثيرًا عن جميل بثينة.

فبرغم أن محبوبته جارية في قصر الخليفة، فهي بجمالها، في أشعاره، ملكة متوجة وهو يقدرها لعفتها، سواء رضيت عنه أو غضبت عليه، فهو عبد الله في تدينه، عبد للجمال في حبه.

وحبّه لها وخضوعه لا يقللان من شأنه كرجل، بل هما يرفعانه درجات ودرجات.

(١٧) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزيه،ص: ٤٦٧

وسرت تلك النغمة من الصحراء إلى الأندلس ولقيت ترحيبًا كبيرًا.

وابن حزم (٩٩٣ – ١٠٦٢) هو رائد فن الغزل والحب، برغم أنه من عائلة قوطية دخلت الإسلام بعد احتلال المسلمين للأندلس.

وقد شغل ابن حزم أرفع مناصب الدولة في بلاط قرطبة وعاش عربيًا صرفًا بل وادَّعى أنه ينتسب إلى الأمويين في دمشق؛ وكان ابن حزم شاعرًا وفيلسوفًا كبيرًا. وفي كتابه الشهير عن الحب المعروف ب «طوق الحمامة» يقول سنة ١٠٢٠م، أفكارا قريبة الشبه من أفكار دانتي.

فحبه لمحبوبته هو وسيلة من وسائل حبه لله:

أمِن عالم الأملاك أنتَ أم إنسيُّ

أبنْ لي: فقد أزرى بتمييزي العِيُّ

أرى هيئة إنسية غير أنه

إذا أُعمل التفكير، فالجِرْمُ عُلويُّ

تبارك مَن سوّى مذاهب خلقِهِ

على أنك النور الأنيق الطبيعيُّ» (١٨).

(١٨) العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، ص: ٥٢١ بتصرف.

ابن زيدون وولادة
وقصائد حُبّ أقوى من السِحر

في الأندلس بلد الفنون والعلوم «تعلق ابن زيدون بامرأة قررت مصيره، هي الشاعرة ولادة أميرة الأمويين الباهرة الجمال...

وأراد له حظه السيء أن يكون غريمه في هذا الحب الوزير الأول أبو عامر بن عبدون، فكاد له، واتهمه ونسب إليه محاولة القيام بثورة على السلطان.

لقد كانت الرسالة التي بعث بها ابن زيدون، يهجو فيها خصمه نصرًا أدبيًا أضحك القوم، لِما في هذه الرسالة من هجاء مقذع ناجح جعل من خصمه مهزلة القوم، ومادة غزيرة استغلها غريمه، كما كانت أيضًا سببًا في إحلال غضب أصحاب الشأن عليه وسجنه.

وحاول الشاعر عبثًا أن يرفع الحيف الذي نزل به، بالتوسل إلى السلطان، وأخيرًا لجأ إلى الفرار، وظل مختبئًا سنوات عديدة، بيد أن شوقه لِولادة دفعه مرة ثانية إلى الاقتراب من قرطبة.

وفي أطلال الزهراء – قصر الأمويين العظيم – التي وقعت فريسة في أيدي البربر ينهبونها، وحيث كان «البوم ينعق فيها، وفيها أشباح مفزعة»، تبعث على الخوف في أوصاله؛ من هذا

الطلل بالذات بعث ابن زيدون بآهاته المملؤة بالشوق والحنين إلى محبوبته التي أنساها عالمُها الشاعر الذي كانت بالنسبة إليه عالمه بأجمعه.

لقد ملأ هذا الحب حياته كلها، ورسمها بميسم خاص، وزودها بدفق من المشاعر والأحلام، صاغها الشاعر في قصائد «لها من القوة» - كما تقول العرب - «ما لم يكن للسحر قط، وكان لها من السمو، ما لم يكن للنجوم» وبعد ضياع طويل، حط به الترحال في قصر أشبيلية، حيث قدَّم للمعتمد لدى احتلاله خدمات جليلة...» (١٩).

ومن أشعاره في محبوبته «ولادة» وهو سجين:

وأعجب كيف يغلبني عدوٌ
رضاكِ عليه من أمضى سلاحِ
ولما أجَّلَتْكِ ليَّ اختلاساً
أكفُّ الدهر للحَيْنِ المتاحِ
رأيت الشمس تطلع من نقابٍ
وغصنَ البانِ يَرْفُل من وشاحِ
فلو أستطيع طرتُ إليكِ شوقاً
وكيف يطيرُ مقصوص الجناح

(١٩) شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، ص: ٥١٦.

ويقول لها في موضع آخر:

تهْ أحتملْ واستطلْ أصبر وعزْ أهنْ
وولْ أقبلْ وقلْ أسمعْ ومرْ أطِعِ

وتكاد تسمع أنين وحنين ابن زيدون إلى الأيام الخوالي، في قصيدته التي تفيض رِقة وعذوبة وشوق وحرقة، إذ يقول:

أَضحى التَنائي بَديلاً مِن تَدانينا
وَنابَ عَن طيبِ لُقيانا تَجافينا
أَنَّ الزَمانَ الَّذي مازالَ يُضحِكُنا
أُنساً بِقُربِهِمُ قَد عادَ يُبكينا
غيظَ العِدا مِن تَساقينا الهَوى فَدَعَوا
بِأَن نَغَصَّ فَقالَ الدَهرُ آمينا
فَاِنحَلَّ ما كانَ مَعقوداً بِأَنفُسِنا
وَاِنبَتَّ ما كانَ مَوصولاً بِأَيدينا
وَقَد نَكونُ وَما يُخشى تَفَرُّقُنا
فَاليَومَ نَحنُ وَما يُرجى تَلاقينا

لَم نَعتَقِد بَعدَكُم إِلّا الوَفاءَ لَكُم

رَأيًا وَلَم نَتَقَلَّد غَيرَهُ دينا

ما حَقَّنا أَن تُقِرّوا عَينَ ذي حَسَدٍ

بِنا وَلا أَن تَسُرّوا كاشِحاً فينا

بِنتُم وَبِنّا فَما اِبتَلَّت جَوانِحُنا

شَوقاً إِلَيكُم وَلا جَفَّت مَآقينا

نَكادُ حينَ تُناجيكُم ضَمائِرُنا

يَقضي عَلَينا الأَسى لَولا تَأَسّينا

حالَت لِفَقدِكُمُ أَيّامُنا فَغَدَت

سوداً وَكانَت بِكُم بيضاً لَيالينا

إِذ جانِبُ العَيشِ طَلقٌ مِن تَأَلُّفِنا

وَمَربَعُ اللَهوِ صافٍ مِن تَصافينا

لِيُسقَ عَهدُكُمُ عَهدُ السُرورِ فَما

كُنتُم لِأَرواحِنا إِلّا رَياحينا

لا تَحسَبوا نَأيَكُم عَنّا يُغَيِّرُنا

أَن طالَما غَيَّرَ النَأيُ المُحِبّينا

وَاللهِ ما طَلَبَت أَهواؤُنا بَدَلاً

مِنكُم وَلا اِنصَرَفَت عَنكُم أَمانينا

يا سارِيَ البَرقِ غادِ القَصرَ وَاِسقِ بِهِ

مَن كانَ صِرفَ الهَوى وَالوُدُّ يَسقينا

وَاِسأَل هُنالِكَ هَل عَنّى تَذَكُّرُنا

إِلفاً تَذَكُّرُهُ أَمسى يُعَنّينا

وَيا نَسيمَ الصَبا بَلِّغ تَحِيَّتَنا

مَن لَو عَلى البُعدِ حَيّا كانَ يُحَيّينا

ولما كانت محبوبته «ولادة» أميرة من ساكني القصور، و ربيبة مُلْك، ونشأة عِزٍّ وَسُؤْدُدٍ، وصاحبة جمال وحِلْيَةٍ يواصل ابن زيدون الإبداع والتألق، ليقول أجمل ما قاله المُحِب في حبيبه:

رَبيبُ مُلكٍ كَأَنَّ اللَهَ أَنشَأَهُ

مِسكاً وَقَدَّرَ إِنشاءَ الوَرى طينا

أَو صاغَهُ وَرِقاً مَحضاً وَتَوَّجَهُ

مِن ناصِعِ التِبرِ إِبداعاً وَتَحسينا

يا رَوضَةً طالَما أَجنَت لَواحِظَنا

وَرداً جَلاهُ الصِبا غَضّاً وَنَسرينا

وَيا حَياةً تَمَلَّينا بِزَهرَتِها

مُنىً ضُروباً وَلَذّاتٍ أَفانينا

وَيا نَعيماً خَطَرنا مِن غَضارَتِهِ

في وَشيِ نُعمى سَحَبنا ذَيلَهُ حينا

لَسنا نُسَمّيكِ إِجلالاً وَتَكرِمَةً

وَقَدرُكِ المُعتَلي عَن ذاكَ يُغنينا

إِذا اِنفَرَدتِ وَما شورِكتِ في صِفَةٍ

فَحَسبُنا الوَصفُ إيضاحاً وَتَبيينا

يا جَنَّةَ الخُلدِ أُبدِلنا بِسِدرَتِها

وَالكَوثَرِ العَذبِ زَقّومًا وَغِسلينا

كَأَنَّنا لَم نَبِت وَالوَصلُ ثالِثُنا

وَالسَعدُ قَد غَضَّ مِن أَجفانِ واشينا

إِن كانَ قَد عَزَّ في الدُنيا اللِقاءُ بِكُم

في مَوقِفِ الحَشرِ نَلقاكُم وَتَلقونا

سِرّانِ في خاطِرِ الظَلماءِ يَكتُمُنا

حَتّى يَكادَ لِسانُ الصُبحِ يُفشينا

لا غَروَ في أَن ذَكَرنا الحُزنَ حينَ نَهَت

عَنهُ النُهى وَتَرَكنا الصَبرَ ناسينا

إِنّا قَرَأنا الأَسى يَومَ النَوى سُوَرًا

مَكتوبَةً وَأَخَذنا الصَبرَ تَلقينا

أَمّا هَواكِ فَلَم نَعدِل بِمَنهَلِهِ

شُرَبًا وَإِن كانَ يُروينا فَيُظمينا

لَم نَجفُ أُفقَ جَمالٍ أَنتِ كَوكَبُهُ

سالينَ عَنهُ وَلَم نَهجُرهُ قالينا

وَلا اِختِيارًا تَجَنَّبناهُ عَن كَثَبٍ

لَكِن عَدَتنا عَلى كُرهٍ عَوادينا

نَأسى عَلَيكِ إِذا حُثَّت مُشَعشَعَةً

فينا الشَمولُ وَغَنّانا مُغَنّينا

لا أَكؤُسُ الراحِ تُبدي مِن شَمائِلِنا

سِيَما اِرتِياحٍ وَلا الأَوتارُ تُلهينا

دومي عَلى العَهدِ ما دُمنا مُحافِظَةً

فَالحُرُّ مَن دانَ إِنصافاً كَما دينا

فَما اِستَعَضنا خَليلاً مِنكِ يَحبِسُنا

وَلا اِستَفَدنا حَبيباً عَنكِ يَثنينا

وَلَو صَبا نَحوَنا مِن عُلوِ مَطلَعِهِ

بَدرُ الدُجى لَم يَكُن حاشاكِ يُصبينا

أَبكي وَفاءً وَإِن لَم تَبذُلي صِلَةً

فَالطَيّفُ يُقنِعُنا وَالذِكرُ يَكفينا

وَفي الجَوابِ مَتاعٌ إِن شَفَعتِ بِهِ

بيضَ الأَيادي الَّتي ما زِلتِ تولينا

عَلَيكِ مِنّا سَلامُ اللَهِ ما بَقِيَت

صَبابَةٌ بِكِ نُخفيها فَتَخفينا

المعتمد واعتماد

تَرَف وتدلّل وحُبّ

ما زلنا في القصور، وأجواء الترف والتنعم...

«ففي أحد أيام شهر فبراير دخل المعتمد على اعتماد وهي في حجرتها، فإذا بها تطل من النافذة والدموع تنحدر من مآقيها. ولما سألها عما بها أجابته متدلّهة:

ألا ترى الثلج على تلك الأشجار البعيدة يكسوها بثوب أبيض جميل. وأنت لم تفكر مرة واحدة في أن تجلب لي هذا المنظر الساحر أو أن تسافر معي إلى بلد جميل بثلوجه ومناظره.

وضحك المعتمد ولاطفها وجفف دموعها ووعدها بما طلبت وأمر في الحال أن تُزرَع بالقرب من نافذتها أشجار اللوز لتنعم حبيبته بمرأى أزهارها البيض، «ابتسامة الربيع الأولى على شفتي الكون» لتعوض بها عن مرأى الثلج.

وذات مرة، تملّك اعتمادًا حزن شديد حين رأت نساء من العامة يغصن بأقدامهن في الوحل مرحات يعددنه لصنع قوالب من الطين، وقالت لزوجها متحسرة:

«إني تعسة، أعيش مسجونة في هذا القصر ولا أستطيع أن أغوص بأقدامي العارية في الوحل كهؤلاء النسوة».

وضحك زوجها عاليًا وأمر بإحضار كمية من القرفة والمسك والطيب ورش عليها ماء الورد ثم عاد إلى زوجته ليخبرها أن العجينة تنتظرها لتغوص فيها بأقدامها العارية عابثة.

لقد أحب الرجل فيها تلك النزوات ووجد متعته في الارتماء تحت أقدامها.

وماذا يهم إن كانت هي قد تربَّت بين الأطلال بينما هو تربَّى بين القصور. إن الحب لا يعرف تلك الفوارق. فسلطان الحب قد جعل منه عبدًا للجمال وهو الملك الجبار.

ومما قاله الملك الشاعر المعتمد في حب اعتماد، تلك الأبيات التي تُكَوِّن حروفها الأولى اسم زوجته «اعتماد»:

اغائبة الشخص من ناظريّ

وحاضرة في صميم الفؤادِ

عليكِ السلام بقدر الشجون

ودمع الشؤون وقدر السهادِ

تملكتِ منيَ صعب المرام

وصادفت ودّيَ سهل القيادِ

مرادي لقياكِ في كل حينِ

فيا ليتَ أنيَ أعْطى مرادي

أقيمى على العهد ما بيننا

ولا تستحيلي لطول البعادِ

دسستُ اسمكِ في طيّ شعري

وألّفتُ فيه حروف «اعتماد»

***

وبقيت المرأة العربية كما كانت في الجاهلية وصدر الإسلام معتزة بنفسها وكرامتها طالما هي بعيدة عن تيارات المدينة. وبقيت البدوية في القرون الإسلامية الأولى أكثر حرية وكرامة من سيدات الطبقة الراقية في قصور دمشق.

ولا عجب أن تكره البدوية حياة المدينة وتحن إلى حياة البادية. وقد سمع معاوية ذات يوم صوتًا حزينًا ينبعث من مخدع زوجته ميسون يردد الأبيات الآتية:

لَبَيْتٌ تخفِقُ الأرواحُ فيه
أحبُّ إليَّ من قصرٍ مُنيفِ
وأصواتُ الرياحِ بكل فَجٍّ
أحبُّ إليَ من نَقْر الدُّفوفِ
ولُبْسُ عباءةٍ وتقَرُّ عيْني
أحبُّ إليَّ من لِبْسِ الشُّفوفِ
وأكْلُ كُسَيْرَة في كِسْرِ بَيْتي
أحبُّ إليَّ من أَكْلِ الرَّغيفِ
وخَرْقٍ مِن بني عمي نحيفِ
أحبُّ إليَّ من عِلْجٍ عليفِ
خشونَةُ عِيشتي في البدْو أشهى
إلى نفسي من العيشِ الظَّريفِ
فما أبْغي سوى وطني بديلا
فحسبي ذاكَ من وطن شريفِ

فما كان من معاوية إلا أن أخلى سبيلها. وأعطت ابنة الصحراء للبريق والحرير ظهرها غير نادمة. وأسرعت لموطنها حيث للمرأة مكانتها واحترامها. مكانة عالية، واحترام زائد لم تعرفه المرأة الشرقية فيما بعد والذي لم يكن له نظير إلا في الأندلس العربية، بل لقد فاقت مكانة المرأة في الأندلس كل هذا» ([٢٠]).

([٢٠]) **شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، ص: ٤٧٢، ٤٧٣ ، ٥٢٠، بتصرف.**

عُشَّاق ومُبْدِعون

هل المُحب مُبدِع...؟

هل قلبه الرقيق مصدر إبداعه...؟

أَلِهذا حاز مَلَكة التعبير والبوح والإبداع...

هل كان الحب مُحرِّكه وقائده ودليله؟

أم أنه لو لم يحب لن يبدع؟

هذا شاعر قال في وصف لحظات توديع محبوبته وهو على أهبَة السفر عجبًا:

ولَمَّا تَبَدَّتُ لِلرَّحِيلِ جِمَالُنا

وجَدَّ بِنَا سَيْرٌ وثَارت مَواجِعُ

تَبَدَّتْ لَنَا مَذعُورَةً مِن خِبَائِها

ونَاظِرُها باللّؤْلُؤِ الرَّطبِ دَامِعُ

أشَارَتْ بأطَرَافِ البَنَانِ ووَدَّعَتْ

وأوْمَت بِعَيْنَيْها متى أنتَ راجِعُ

فقُلْتُ لها: واللهِ ما مِنْ مُسافِرٍ

يَسِيرُ ويَدْرِي ما به اللهُ صانِعُ

فشَالَتْ نِقَابَ الحُسْنِ عَنْ بَدْرِ وَجْهِها

وسَالَتْ مِن الطّرْفِ الكَحِيلِ مَدَامِعُ

وقالت: إلهي كُنْ عَلِيه خَلِيفَةً

فيَا رَبِّ ما خَابَتْ لَدَيكَ الوَدَائِعُ

وهذا بهاء الدين زهير يصور موقف وداع حبيبته تصويرًا ولا أروع، ويُوثِّق اللحظات كأنها كاميرا فيديو ولا أجمل:

وَقائِلَةٍ لَمّا أَرَدتُ وَداعَها

حَبيبي أَحَقّاً أَنتَ بِالبَينِ فاجِعي

فَيا رَبَّ لا يَصدُق حَديثٌ سَمِعتُهُ

لَقَد راعَ قَلبي ما جَرى في مَسامِعي

وَقامَت وَراءَ السَترِ تَبكي حَزينَةً

وَقَد نَقَبَتهُ بَينَنا بِالأَصابِعِ

بَكَت فَأَرَتني لُؤلُؤاً مُتَناثِراً

هَوى فَالتَقَتهُ في فُضولِ المَقانِعِ

فَلَمّا رَأَت أَنّ الفِراقَ حَقيقَةٌ

وَأَنّي عَلَيهِ مُكرَهٌ غَيرُ طائِعِ

تَبَدَّت فَلا وَاللَهِ ما الشَمسُ مِثلَها

إِذا أَشرَقَت أَنوارُها في المَطالِعِ

تُسَلِّمُ بِاليُمنى عَلَيَّ إِشارَةً

وَتَمسَحُ بِاليُسرى مَجاري المَدامِعِ

وَما بَرِحَت تَبكي وَأَبكي صَبابَةً

إِلى أَن تَرَكنا الأَرضَ ذاتَ نَقائِعِ

سَتُصبِحُ تِلكَ الأَرضُ مِن عَبَراتِنا

كَثيرَةَ خِصبٍ رائِقِ النَبتِ رائِعِ

وهذا أمير الشعراء:

بيني في الحبِّ وبينك
ما لا يَقْدِرُ واشٍ يُفْسِدُه
ما بالُ العاذِلِ يَفتح لي
بابَ السُّلْوانِ وأُوصِدُه؟
ويقول: تكاد تجنُّ به
فأَقول: وأُوشِكُ أَعْبُده
مَوْلايَ ورُوحِي في يَدِه
قد ضَيَّعها سَلِمتْ يَدُه
ناقوسُ القلبِ يدقُّ لهُ
وحنايا الأَضْلُعِ مَعْبَدُه

أما المتنبي فيقول:

وَعَذَلتُ أَهلَ العِشقِ حَتّى ذُقتُهُ
فَعَجِبتُ كَيفَ يَموتُ مَن لا يَعشَقُ
وَعَذَرتُهُم وَعَرَفتُ ذَنبِيَ أَنَّني
عَيَّرتُهُم فَلَقيتُ فيهِ ما لَقوا

ويقول أيضاً:

فَلَم أَرَ بَدراً ضاحِكاً قَبلَ وَجهِها
وَلَم تَرَ قَبلي مَيِّتاً يَتَكَلَّمُ
ظَلومٌ كَمَتنَيها لِصَبٍّ كَخَصرِها
ضَعيفِ القُوى مِن فِعلِها يَتَظَلَّمُ
بِفَرعٍ يُعيدُ اللَيلَ وَالصُبحُ نَيِّرٌ
وَوَجهٍ يُعيدُ الصُبحَ وَاللَيلُ مُظلِمُ

***

أما قيس بن الملوح (مجنون ليلى) فقد حرمه الحب والوله متعة النوم، وصار يعد الليالي، واستبد به السهد، وتملكه الأرق، وغلبه الشرود، وراح يقاوم طغيان الحب، ويغالب نزعات النفس، ويصارع نزعات الهوى، فلم يقدر على الصمود، ولم يقوَ على التحدي، وفشلت كل محاولات الوصل أو الهجر أو النسيان، وعاش هائمًا معذبًا تائهًا بين الواقع والخيال، لا يدري من أمره شيئًا، حتى الصلاة لا يدرك عدد ركعاتها:

أَعِدَّ اللَيالي لَيلَةً بَعدَ لَيلَةٍ

وَقَد عِشتُ دَهراً لا أُعِدَّ اللَيالِيا

إِذا ما طَواكِ الدَهرُ يا أُمَّ مالِكٍ

فَشَأنُ المَنايا القاضِياتِ وَشانِيا

رُوَيداً لِئَلّا يَركَبَ الحُبُّ وَالهَوى

عِظامَكَ حَتّى يَنطَلِقنَ عَوارِيا

وَيَأخُذَكَ الوَسواسُ مِن لاعِجِ الهَوى

وَتَخرَسُ حَتّى لا تُجيبُ المُنادِيا

خَليلَيَّ إِن دارَت عَلى أُمِّ مالِكٍ

صَروفُ اللَيالي فَابغِيا لِيَ ناعِيا

وَلا تَترِكاني لا لِخَيرٍ مُعَجَّلٍ

وَلا لِبَقاءٍ تَطلُبانِ بَقائِيا

خَليلَيَّ لَيلى قُرَّةُ العَينِ فَاِطلُبا

إِلى قُرَّةِ العَينَينِ تَشفي سَقامِيا

خَليلَيَّ لا وَاللَهِ لا أَملِكُ البُكا

إِذا عَلَمٌ مِن آلِ لَيلى بَدا لِيا

خَليلَيَّ لا وَاللَهِ لا أَملِكُ الَّذي

قَضى اللَهُ في لَيلى وَلا ما قَضى لِيا

قَضاها لِغَيري وَاِبتَلاني بِحُبِّها

فَهَلّا بِشَيءٍ غَيرَ لَيلى اِبتَلانِيا

خَليلَيَّ لا تَستَنكِرا دائِمَ البُكا

فَلَيسَ كَثيراً أَن أُديمَ بُكائِيا

وَكَيفَ وَما في العَينِ مِن مُضمَرِ الحَشا

تُضَمِّنُهُ الأَحزانُ مِنها مَكاوِيا

فَيا رَبَّ سَوِّ الحُبَّ بَيني وَبَينَها

يَكونُ كِفافا لا عَلَيَّ وَلا لِيا

وَإِلّا فَبَغِّضها إِلَيَّ وَأَهلَها

تَكُن نِعمَةً ذا العَرشِ أَهدَيتَها لِيا

أَرى الدَهرَ وَالأَيامَ تَفنى وَتَنقَضي

وَحُبُّكِ لا يَزدادُ إِلّا تَمادِيا

فَيا رَبِّ إِن زادَت بَقيَّةُ ذَنبِها

عَلى أَجرِها فَاِنقُص لَها مِن كِتابِيا

قَضى اللَهُ بِالمَعروفِ مِنها لِغَيرِنا

وَبِالشَوقِ وَالإِبعادِ مِنها قَضى لِيا

فَإِن يَكُ فيكُم بَعلَ لَيلى فَإِنَّني

وَذي العَرشِ قَد قَبَّلتُ لَيلى ثَمانِيا

إِذا اِكتَحَلَت عَيني بِعَينِكِ لَم نَزَل

بِخَيرٍ وَأَجلَت غَمرَةً عَن فُؤادِيا

وَأَنتِ الَّتي إِن شِئتِ نَغَّصتِ عيشَتي

وَإِن شِئتِ بَعدَ اللَهِ أَنعَمتِ بالِيا

وَإِنّي لَأَستَغشي وَما بِيَ نَعسَةٌ

لَعَلَّ خَيالاً مِنكِ يَلقى خَيالِيا

وَإِنّي إِذا صَلَّيتُ وَجَّهتُ نَحوَها

بِوَجهي وَإِن كانَ المُصَلّى وَرائِيا

وَما بِيَ إِشراكٌ وَلَكِنَّ حُبَّها

كَعودِ الشَجى أَعيا الطَبيبَ المُداوِيا

أُحِبُّ مِنَ الأَسماءِ ما وافَقَ اِسمُها

وَشابَهَهُ أَو كانَ مِنهُ مُدانِيا

فَيا لَيلُ كَم مِن حاجَةٍ لي مُهِمَّةٌ

إِذا جِئتَكُم يا لَيلُ لَم أَدرِ ما هِيا

أَخافُ إِذا نَبَّأتُكُم أَن تَرِدِّني

فَأَترُكَها ثِقلاً عَلَيَّ كَما هِيا

أُصَلّي فَما أَدري إِذا ما ذَكَرتُها اِث

نَتَينِ صَلَّيتُ الضُحى أَم ثَمانِيا

وَما جِئتَها أَبغي شِفائي بِنَظرَةٍ

فَأُبصِرُها إِلّا اِنصَرَفتُ بِدائِيا

دَعَوتُ إِلَهَ الناسِ عِشرينَ حِجَّةً

نَهاري وَلَيلي في الأَنيسِ وَخالِيا

لِكَي تُبتَلى لَيلى بِمِثلِ بَليَّتي

فَيُنصِفَني مِنها فَتَعلَمُ حالِيا

فَلَم يَستَجِب لي مِن هَواها بِدَعوَةٍ

وَما زادَ بُغضي اليَومَ إِلّا تَمادِيا

وَتَذنُبُ لَيلى ثُمَّ تَزعَمُ أَنَّني

أَسَأتُ وَلا يَخفى عَلى الناسِ ما بِيا

وَتُعرِضُ لَيلى عَن كَلامي كَأَنَّني

قَتَلتُ لِلَيلى إِخوَةً وَمَوالِيا

يَقولُ أُناسٌ عَلَّ مَجنونَ عامِرٍ

يَرومُ سَلوّاً قُلتُ أَنّى بِهِ لِيا

بِيَ اليَومَ داءٌ لِلهِيامِ أَصابَني

وَما مِثلُهُ داءً أَصابَ سَوائِيا

فَإِن تَمنَعوا لَيلى وَحُسنَ حَديثِها

فَلَم تَمنَعوا عَنّي البُكا وَالقَوافِيا

يُلَوِّمُني اللوّامُ فيها جَهالَةً

فَلَيتَ الهَوى بِاللائِمينَ مَكانِيا

لَوَ أَنَّ الهَوى في حُبِّ لَيلى أَطاعَني

أَطَعتُ وَلَكِنَّ الهَوى قَد عَصانِيا

وَلي مِثلُ ما في شِعرِ مَن كانَ ذا هَوىً

يَبيتُ جَريحَ القَلبِ حَرّانَ ساهِيا

فَإِن يَكُ فيكُم بَعلَ لَيلى فَقُل لَهُ

تَصَدَّق بِلَيلى طَيِّبِ النَفسِ راضِيا

فَأَشهَدُ عِندَ اللَهِ أَني أُحِبُّها

فَهَذا لَها عِندي فَما عِندَها لِيا

خَليلَيَّ إِن أَغلَوا بِلَيلى فَأَغلِيا

عَلَيَّ وَإِن أَبقَوا فَلا تُبقِيا لِيا

وَإِن سَأَلوا إِحدى يَدَيَّ فَأَعطِيا

يَميني وَإِن زادوا فَزيدوا شِمالِيا

أَمَضروبَةٌ لَيلى عَلى أَن أَزورُها

وَمُتَخِذٌ جُرماً عَلى أَن تَرانِيا

ذَكَت نارُ شَوقي في فُؤادي فَأَصبَحَت

لَها وَهَجٌ مُستَضرَمٌ في فُؤادِيا

وَخَبَّرتُماني أَنَّ تَيماءَ مَنزِلٌ

لِلَيلى إِذا ما الصَيفُ أَلقى المَراسِيا

فَهَذي شُهورُ الصَيفِ عَنّا قَدِ اِنقَضَت

فَما لِلنَوى تَرمي بِلَيلى المَرامِيا

إِذا الحُبُّ أَضناني دَعوا لي طَبيبَهُم

فَيا عَجَباً هَذا الطَبيبَ المُداوِيا

وَقالوا بِهِ داءٌ قَدَ اَعيا دَواؤُهُ

وَقَد عَلِمَت نَفسي مَكانَ شِفائِيا

وَقَد كُنتُ أَعلو الحُبَّ حيناً فَلَم يَزَل

بي النَقضُ وَالإِبرامُ حَتّى عَلانِيا

لَإِن ظَعَنَ الأَحبابُ يا أُمَّ مالِكٍ

لَما ظَعَنَ الحُبُّ الَّذي في فُؤادِيا

أَلا لَيتَنا كُنّا جَميعاً وَلَيتَ بي

مِنَ الداءِ ما لا يَعلَمونَ دَوائِيا

فَما هَبَّتِ الريحُ الجَنوبُ مِنَ اَرضِها

مِنَ اللَيلِ إِلّا بِتُّ لِلريحِ حانِيا

وَلا سُمِّيَت عِندي لَها مِن سَميَّةٍ

مِنَ الناسِ إِلّا بَلَّ دَمعي رِدائِيا

خَليلَيَّ أَمّا حُبَّ لَيلى فَقاتِلٌ

فَمَن لي بِلَيلى قَبلَ مَوتِ عَلانِيا

فَلَو كانَ واشٍ بِاليَمامَةِ دارُهُ

وَداري بِأَعلى حَضرَمَوتَ اِهتَدى لِيا

وَماذا لَهُم لا أَحسَنَ اللَهُ حِفظَهُم

مِنَ الحَظِّ في تَصريمِ لَيلى حِبالِيا

وَمِن أَجلِها سُمّيتُ مَجنونَ عامِرٍ

فِداها مِنَ المَكروهِ نَفسي وَمالِيا

فَلَو كُنتُ أَعمى أَخبِطُ الأَرضَ بِالعَصا

أَصَمَّ فَنادَتني أَجَبتُ المُنادِيا

وَأَخرُجُ مِن بَينِ البُيوتِ لَعَلَّني

أُحَدِّثُ عَنكِ النَفسَ يا لَيلَ خالِيا

وَلا سِرتُ ميلاً مِن دِمَشقَ وَلا بَدا

سُهَيلٌ لِأَهلِ الشامِ إِلّا بَدا لِيا

وَلا طَلَعَ النَجمُ الَّذي يُهتَدى بِهِ

وَلا البَرقُ إِلّا هَيَّجا ذِكرَها لِيا

بِنَفسي وَأَهلي مَن لَوَ أَنّي أَتَيتُهُ

عَلى البَحرِ وَاِستَسقَيتُهُ ما سَقانِيا

وَمَن قَد عَصَيتُ الناسَ فيهِ جَماعَةً

وَصَرَّمتُ خِلّاني بِهِ وَجَفانِيا

وَمَن لَو رَأى الأَعداءَ يَكتَنِفونَني

لَهُم غَرَضاً يَرمونَني لَرَمانِيا

وَلَم يُنسِني لَيلى اِفتِقارٌ وَلا غِنى

وَلا تَوبَةٌ حَتّى اِحتَضَنتُ السَوارِيا

وَلا نِسوَةٌ صَبَّغنَ كَبداءَ جَلعَداً

لِتُشبِهَ لَيلى ثُمَّ عَرَّضنَها لِيا

حَلَفتُ لَإِن لاقَيتُ لَيلى بِخَلوَةٍ

أَطوفُ بِبَيتِ اللَهِ رَجلانَ حافِيا

شَكَرتُ لِرَبّي إِذ رَأَيتُكِ نَظرَةً

نَظَرتُ بِها لا شَكَّ تَشفي هُيامِيا

جَمال محبوبتك
قَرض وسلفة!

رُبَّما خُيِّل إلى المُحِبين أن جمال محبوباتهم ملكٌ لهن، وأنهن أصحاب الفضل في إيجاده، وغاب عنهم أن الذي يملك الجمال هو مَن وهبه..

وقد يدركون في وقت متأخر، (أن جمال المرأة هو جمال زائر وليس جمالًا مقيمًا لأنه ليس جمالها هي، وإنما هو ظل ينعكس عليها من الملكوت، ثم ما يلبث أن يفارقها حينما يتغلب قانون المادة والشيخوخة والتراب) ([٢١]).

وقد يدرك هؤلاء المُحبون (في وقت متأخر) أن الحب والهوى والغرام خداع ألوان، فما نراه في المحبوبة مثلما نراه في قوس قزح، جمال ألوان قوس قزح ليس من قوس قزح نفسه ولكنه من فعل نور الشمس على رذاذ المطر المعلق في الهواء، فإذا غابت الشمس وجف المطر اختفت الألوان وذهب الجمال.

([٢١]) القرآن محاولة فهم عصري، مصطفى محمود، ص: ٥٠

وهكذا محبوبتك جمالها فيما يتجلى عليها من خالقها، فإذا انقطع عنها التجلي شاخت ومرضت وذبلت وعادت قبحًا لا جاذبية فيها...

إن ما كانت تملكه من جمال لم يكن ملكاً لها بالأصالة، بل كان قرضًا وسلفة.

حتى السجايا الحلوة والنفوس العذبة والخلال الكريمة هي بعض ما يتجلى فينا من أسماء خالقنا الكريم الحليم الودود الرؤوف الغفور الرحيم.

أليست هذه أسماؤه...؟!

وهل نحب حينما نحب إلا أسماءه حيثما تحققت وأينما تحققت.

وهل نحب حينما نحب سوى حضرته الإلهية في كل صورة من صورها.

والحكيم العارف مَن أدرك هذه الحقيقة فاتجه بحبه إلى الأصل إلى ربه ولم يلتفت إلى الوسائط ولم يدَع بهرج الألوان يعطله... ولم يقف عند الأشخاص... فهو من أهل العزائم لا تعَلُق له إلا بربه... لقد وفر على نفسه خيبة الأمل وانقطاع الرجاء وخداع الألوان.

لقد أحب مَن لا يهجر، وعَشق مَن لا يفتر، وتعلق بمَن لا يغيب، وارتبط بمَن لا يموت، وصاحب مَن بيده الأمر كله، وساهم في البنك المركزي الذي يخرج منه النقد جميعه... وهامَ بالودود حقًا ذاتًا وصفاتًا وأفعالًا.

وذلك هو مذهب العارفين في الحب.

فهل عرفت؟

وإذا كنت عرفت... فهل أنت بمستطيع؟

وليس كل عارف بمستطيع.

ومذهب العارفين ليس مجرد معرفة...

ولكنه همة واقتدار وكدح ومغالبة... والنفس لا تستطيع أن تعشق إلا ما ترى ولا أن تتعلق إلا بما تشهد بصرًا وسمعًا وحواسًا.

أما تعلق الفؤاد بالذي ليس كمثله شيء فمرتبة عليا لا يوصل إليها إلا بالكدح والكفاح والهمة... وقبل ذلك كله... بالتوفيق والرضا من صاحب الأمر كله.

ولهذا أدرك العارفون أن هذا أمرًا لا يمكن الوصول إليه إلا ركوعًا وسجودًا وابتهالًا وعبادة وطاعة وخضوعًا وخشوعًا وتذللًا وتجردًا وإن هذه مرتبة لا تُنال بشهادة جامعية ولا بماجستير أو دكتوراه، أو تحصيل عقلي... ولكنها منزلة رفيعة لا مدخل

إليها إلا بالإخلاص وسلامة القلب وطهارة اليد والقدم والعين والأذن ولا سبيل إليها إلا بخلع النعلين.

تخلع جسدك ونفسك.

وليس مقصود القوم هنا هو الزهد الفارغ والتبطل... وإنما أن تخلع حظك وأنانيتك وشهوتك وطمعك وشخصانيتك، وأن ترتد إلى الطهارة الأولى اللا شخصانية التي تعطي فيها وتحب دون نظر إلى حظ شخصي أو عائد ذاتي.. فهي حالة عمل وعطاء وبذل وليس حالة زهد فارغ وتبطّل، وهي في ذروتها حالة فداء وتضحية في سبيل إعلاء كلمة الله..

تضحية لا تنظر إلى نيشان أو نصب تذكاري. ولكنها تبذل المال والدم والنفس لوجه الله وحده.

ذلك هو الحب في مذهب القوم وهو غير الحب في مذهب بعض منتجي أفلام السينما ومؤلفي الرومانتيكيات، وهو أيضاً غير الحب عند كثير من الناس. حيث الحب هوى ونار وشهوة ولحظات تتألق بالشعر ثم ما تلبث أن تخبو وتنطفئ وتترك رمادًا من الأكاذيب.

«وَلَـٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ» (يوسف: ٢١)

«بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ» (العنكبوت: ٦٣)

هكذا يعلمنا القرآن أن الكثرة لا تعرف، أما العارفون فقليل ما هُم، ولكن الصحافة التي تخاطب الكثرة والسينما التي تتملق الجماهير والمؤلفين الذين يطمعون في الرواج، والشعراء الذين يتبعهم الغاوون يتغنون بألوان أخرى من الحب، ويتيهون معها في أودية الغفلة التي تنتهي بنا إلى جنون قيس وانتحار جوليت، وسقوط راهب تاييس ومباذل فالنتينو، وجرائم كابوني، وموائد مونت كارلو» (٢٢).

وفي نفس المعنى يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي - رحمه الله -: «جمال الأشكال والزهور والرياحين ليس في الحقيقة إلا جمال الله عز وجل، إذ هو مبدعه وهو منشئه.

وإن الناظر إلى صور الجمال وأشكاله الكثيرة إذا جمع في النظر إليها بين رؤية العين وتأمل الفكر، لابد أن يرحل بفكره عن الصور المرئية أمام عينيه إلى مشاهدة المُكّون والمُبدِع، فعَيناه تزيغان في الصور والأشكال، وفكره غائب عنها مستغرق في مشاهدة الجميل الذي أبدعها وصورها كما يشاء.

إذن فحتى الحواس البشرية لها نصيب من رؤية جمال الله عز وجل، ولا ريب أن مَن أحب الله أحبه ببصره الذي في وجهه، وببصيرته التي في قلبه، أما البصر فمأخوذ بجمال صنعه الذي هو فيض من جماله، وأما البصيرة فمأخوذة بكماله وعظيم صفاته» (٢٣)

(٢٢) ما وراء بوابة الموت، مصطفى محمود، ص: ٨٧ – ٨٩ بتصرف.
(٢٣) الحب فى القرآن، محمد سعيد رمضان البوطي، ص: ٤٧

كيف يقع القلب في الحب

من طبيعة القلب أن يحب، و«النفس مولعة بحب النظر إلى الصور الجميلة، والعين رائد القلب. فيبعث رائده لنظر ما هناك، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله، تحرك اشتياقاً إليه، وكثيراً ما يتعب ويتعب رسوله ورائده.

فإذا كف الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب من كلفة الطلب والإرادة، فمَن أطلق لحظاته دامت حسراته. فإن النظر يولد المحبة، فتبدأ علاقة يتعلق بها القلب بالمنظور إليه.

ثم تقوى فتصير صبابة. ينصبُّ إليه القلب بكليته. ثم تقوى فتصير غرامًا يلزم القلب. كلزوم الغريم الذي لا يفارق غريمه. ثم يقوى فيصير عشقًا وهو الحب المفرط. ثم يقوى فيصير شغفًا وهو الحب الذي قد وصل إلى شَغاف القلب وداخله. ثم يقوى فيصير تتيُّمًا. والتتيم التعبد، فيصير القلب عبدًا لمن لا يصلح أن يكون هو عبدًا له.

وهذا كله جناية النظر. فحينئذ يقع القلب الذي في الأَسْر، فيصير أسيرًا بعد أن كان مَلِكًا، ومسجونًا بعد أن كان مطلقًا.

وهذا إنما تبتلى به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له، فإن القلب لابد له من التعلق بمحبوب، فمن لم يكن الله وحده محبوبه وإلهه ومعبوده فلابد أن يتعبد قلبه لغيره..([٢٤]).

(٢٤) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم، ص: ٤٨.

أضرار العِشق ومثالبه

قد يكون العشق لفحة لسعت فؤاد مُتَيَم، وداء «ابتلي به مَن غفل قلبه عن الله تعالى، ودواءه أن يعرف توحيد ربه، وسنته وآياته أولاً، ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكرة فيه، ويكثر اللجأ والتضرع إلى الله سبحانه في صرف ذلك عنه، وأن يرجع بقلبه إليه، وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله، وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال:

«كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ» (يوسف: ٢٤).

وأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق، والفحشاء من الفعل بإخلاصه، فإن القلب إذا أخلص، وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور، فإنه إنما يتمكن من قلب فارغ، كما قال:

أَتاني هَواها قَبلَ أَن أَعرِفِ الهَوى

فَصادَفَ قَلباً خالِياً فَتَمَكَّنا

ولا يجتمع في القلب حب مخلوق وحب الخالق، من هنا كان التوحيد هو حب الله وحده:

«وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ» (البقرة: ١٦٥).

إن مَن أحب شيئاً سوى الله عز وجل فالضرر حاصل له بمحبوبه: إن وجد وإن فقد، فإنه إن فقده عذب بفواته وتألم على قدر تعلق قلبه به، وإن وجده كان ما يحصل له من الألم قبل حصوله، ومن النكد في حال حصوله، ومن الحسرة عليه بعد فواته: أضعاف أضعاف ما في حصوله له من اللذة:

فما في الأَرضِ أَشقى مِن مُحِبٍّ

وَإِن وَجَدَ الهَوى حُلوَ المَذاقِ

تَراهُ باكِياً في كُلِّ وَقتٍ

مَخافَةَ فُرقَةٍ أَو لِاشتِياقِ

فَيَبكي إِن نَأى شَوقاً إِلَيهِم

وَيَبكي إِن دَنَوا خَوفَ الفِراقِ

فَتَسخنُ عَينُهُ عِندَ التَنائي

وَتَسخنُ عَينُهُ عِندَ التَلاقي

ليس هذا فحسب..

بل قد يُذهِب العشقُ العقلَ، وهل أذهب عقل مجنون ليلى إلا ذلك؟

قَالُوا جُنِنْتَ بِمَن تَهْوى فَقُلْتُ لَهم

العِشْقُ أعْظَمُ مِمّا بِالمَجانِينِ

العِشْقُ لا يَسْتَفِيقُ الدَّهْرَ صاحِبُهُ

وإنَّما يُصْرَعُ المَجْنُونُ في الحِينِ

وإذا كانت المحبة لها داعيان: الجمال، والجلال، فالرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك، فإنه جميل يحب الجمال بل الجمال كله له، والإجلال كله منه، فلا يستحق أن يُحَب لذاته من كل وجه سواه.

وإذا كانت القلوب مفطورة على محبة مَن أنعم عليها وأحسن إليها، فكيف بمن كان كل الإحسان منه.

وقد أنكر الله تعالى على مَن سوَّى بينه وبين غيره في المحبة، وأخبر أن مَن فعل ذلك فقد اتخذ من دونه أندادًا يحبهم كحب الله، قال تعالى:

«ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله» (البقرة: ١٦٥)

ولما كانت كمال المحبة ونعيم القلب وابتهاج الروح تأتي من كمال المحبوب. قال السحرة لفرعون لما آمنوا:

« فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ». (طه: ٧٢، ٧٣)

ولما كانت الدنيا منقطعة لذاتها لا تصفو أبداً ولا تدوم، كانت الآخرة لِنَيْل هذه اللذة الدائمة في دار الخلد» ([٢٥]).

***

ويرى ابن المقفع «أن من أوقع الأمور في الدين، وأنهكها للجسد، وأتلفها للمال، وأضرها بالعقل، وأزراها المروءة، وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار، الغرام بالنساء» ([٢٦]).

والعاشق مسكين «كل شيء عدوه، هبوب الريح يقلقه، ولَمَعان البرق يؤرقه، ورسوم الديار تحرقه، والعذل يؤلمه،

([٢٥]) الداء والدواء، ابن القيم، ص: ٤٠٧ – ٤١٦، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٩ بتصرف وإيجاز. وإغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم، ص: ٤٠، ٤١، بتصرف.

([٢٦]) فى الحب والحب العذري، د/ صادق جلال العظم، ص: ٤٤.

والتذكر يسقمه، والبُعد والقرب يهيجه، والليل يضاعف بلاءه، والرقاد يهرب منه...» ([٢٧]).

وهناك مَن يرى أن العشق أمرٌ «اختياري تابع لِهوى النفس وإرادتها، بل هو استحكام الهوى الذي مدح الله مَن نهى عنه نفسه، فقال تعالى:

«وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ»

فمُحال أن ينهى الإنسان نفسه عما لا يدخل تحت قدرته.

.. وقد ذَمَّ الله الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وأخبر أن لهم عذاباً أليمًا.

ولو كانت المحبة لا تُمْلَك لم يتوعَّدهم بالعذاب على ما لا يدخل تحت قدرتهم» ([٢٨]).

ويرى ابن القيم أنه «لَيْسَ فِي عِشْقِ الصُّوَرِ مَصْلَحَةٌ دِينِيَّةٌ ولا دُنْيَوِيَّةٌ، بَلْ مَفْسَدَتُهُ الدِّينِيَّةُ والدُّنْيَوِيَّةُ أَضْعافُ أَضْعافِ ما يُقَدَّرُ فِيهِ مِنَ المَصْلَحَةِ، وذَلِكَ مِن وُجُوهٍ:
أَحَدُها: الِاشْتِغالُ بِحُبِّ المَخْلُوقِ وذِكْرِهِ عَنْ حُبِّ الرَّبِّ تَعالى وذِكْرِهِ، فَلا يَجْتَمِعُ فِي القَلْبِ هَذا وهَذا إلّا ويَقْهَرُ أَحَدُهُما الآخَرَ، ويَكُونُ السُّلْطانُ والغَلَبَةُ لَهُ.

([٢٧]) الحب فى التاريخ، سلامة موسى، ص: ١٤ بتصرف.

([٢٨]) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ص: ٢٢٤.

الثّانِي: عَذابُ قَلْبِهِ بِهِ، فَإنَّ مَن أحَبَّ شَيْئًا غَيْرَ اللَّهِ عُذِّبَ بِهِ ولا بُدَّ، كَما قِيلَ:

فما في الأَرضِ أَشقى مِن مُحِبٍّ

وَإِن وَجَدَ الهَوى حُلوَ المَذاقِ

تَراهُ باكِياً في كُلِّ وَقتٍ

مَخافَةَ فُرقَةٍ أَو لِاشتِياقِ

فَيَبكي إِن نَأى شَوقاً إِلَيهِم

وَيَبكي إِن دَنَوا خَوفَ الفِراقِ

فَتَسخنُ عَينُهُ عِندَ التَنائي

وَتَسخنُ عَينُهُ عِندَ التَلاقي

والعِشْقُ وإنِ اسْتَلَذَّ بِهِ صاحِبُهُ، فَهو أعْظَمُ مِن عَذابِ القَلْبِ.

الثّالِثُ: أنَّ قَلْبَهُ أسِيرُ قَبْضَةِ غَيْرِهِ يَسُومُهُ الهَوانَ، ولَكِنْ لِسَكْرَتِهِ لا يَشْعُرُ بِمُصابِهِ، فَقَلْبُهُ كَعُصْفُورَةٍ في كَفِّ طِفْلٍ يَسُومُها حِياضَ الرَّدى، والطِّفْلُ يَلْهُو ويَلْعَبُ، كَما قالَ بَعْضُ هَؤُلاءِ:

مَلَكْتَ فُؤادِي بِالقَطِيعَةِ والجَفا

وأنْتَ خَلِيُّ البالِ تَلْهُو وتَلْعَبُ

فَعَيْشُ العاشِقِ عَيْشُ الأسِيرِ المُوثَقِ، وعَيْشُ الخَلِيِّ عَيْشُ المُسَيَّبِ المُطْلَقِ.

طَلِيقٌ بِرَأْيِ العَيْنِ وهْوَ أسِيرُ

عَلِيلٌ عَلى قُطْبِ الهَلاكِ يَدُورُ

وَمَيِّتٌ يُرَى في صُورَةِ الحَيِّ غادِياً

ولَيْسَ لَهُ حَتّى النُّشُورِ نُشُورُ

أخُو غَمَراتٍ ضاعَ فِيهِنَّ قَلْبُهُ

فَلَيْسَ لَهُ حَتّى المَماتِ حُضُورُ

الرّابِعُ: أنَّهُ يَشْتَغِلُ بِهِ عَنْ مَصالِحِ دِينِهِ ودُنْياهُ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أضَيْعُ لِمَصالِحِ الدِّينِ والدُّنْيا مِن عِشْقِ الصُّوَرِ، أمّا مَصالِحُ الدِّينِ فَإنَّها مَنُوطَةٌ بِلَمِّ شَعَثِ القَلْبِ وإقْبالِهِ عَلى اللَّهِ، وعِشْقُ الصُّوَرِ أعْظَمُ شَيْءٍ تَشْعِيثًا وتَشْتِيتًا لَهُ.
وَأمّا مَصالِحُ الدُّنْيا فَهي تابِعَةٌ في الحَقِيقَةِ لِمَصالِحِ الدِّينِ، فَمَنِ انْفَرَطَتْ عَلَيْهِ مَصالِحُ دِينِهِ وضاعَتْ عَلَيْهِ، فَمَصالِحُ دُنْياهُ أضْيَعُ وأضْيَعُ.

الخامِسُ: أنَّ آفاتِ الدُّنْيا والآخِرَةِ أسْرَعُ إلى عُشّاقِ الصُّوَرِ مِنَ النّارِ في يابِسِ الحَطَبِ، وسَبَبُ ذَلِكَ: أنَّ القَلْبَ كُلَّما قَرُبَ مِنَ العِشْقِ وقَوِيَ اتِّصالُهُ بِهِ بَعُدَ مِنَ اللَّهِ، فَأبْعَدُ القُلُوبِ مِنَ اللَّهِ قُلُوبُ عُشّاقِ الصُّوَرِ، وإذا بَعُدَ القَلْبُ مِنَ اللَّهِ طَرَقَتْهُ الآفاتُ، وتَوَلّاهُ الشَّيْطانُ مِن كُلِّ ناحِيَةٍ، واسْتَوْلى عَلَيْهِ لَمْ يَدَعْ أذًى يُمْكِنُهُ إيصالُهُ إلَيْهِ إلّا أوْصَلَهُ، فَما الظَّنُّ بِقَلْبٍ تَمَكَّنَ مِنهُ عَدُّوهُ وأحْرَصُ الخَلْقِ عَلى غَيِّهِ وفَسادِهِ، وبَعُدَ مِنهُ ولِيُّهُ، ومَن لا سَعادَةَ لَهُ ولا فَرَحَ ولا سُرُورَ إلّا بِقُرْبِهِ وولايَتِهِ؟

السّادِسُ: أنَّهُ إذا تَمَكَّنَ مِنَ القَلْبِ واسْتَحْكَمَ وقَوِيَ سُلْطانُهُ، أفْسَدَ الذِّهْنَ، وأحْدَثَ الوَسْواسَ، ورُبَّما ألْحَقَ صاحِبَهُ بِالمَجانِينِ الَّذِينَ فَسَدَتْ عُقُولُهم فَلا يَنْتَفِعُونَ بِها.

وَأخْبارُ العُشّاقِ في ذَلِكَ مَوْجُودَةٌ في مَواضِعِها، بَلْ بَعْضُها مَشاهَدٌ بِالعِيانِ، وأشْرَفُ ما في الإنْسانِ عَقْلُهُ، وبِهِ يَتَمَيَّزُ عَنْ سائِرِ الحَيَواناتِ، فَإذا عُدِمَ عَقْلَهُ التَحَقَ بِالحَيَوانِ البَهِيمِ، بَلْ رُبَّما كانَ حالُ الحَيَوانِ أصْلَحَ مِن حالِهِ، وهَلْ أذْهَبَ عَقْلَ مَجْنُونِ لَيْلى وأضْرابِهِ إلّا ذَلِكَ؟ ورُبَّما زادَ جُنُونُهُ عَلى جُنُونِ غَيْرِهِ كَما قِيلَ:

قالُوا جُنِنْتَ بِمَن تَهْوى فَقُلْتُ لَهم
العِشْقُ أعْظَمُ مِمّا بِالمَجانِينِ
العِشْقُ لا يَسْتَفِيقُ الدَّهْرَ صاحِبُهُ
وإنَّما يُصْرَعُ المَجْنُونُ في الحِينِ

السّابِعُ: أنَّهُ رُبَّما أفْسَدَ الحَواسَّ أوْ بَعْضَها، إمّا إفْسادًا مَعْنَوِيًّا أوْ صُورِيًّا، أمّا الفَسادُ المَعْنَوِيُّ فَهو تابِعٌ لِفَسادِ القَلْبِ، فَإنَّ القَلْبَ إذا فَسَدَ فَسَدَتِ العَيْنُ والأُذُنُ واللِّسانُ، فَيَرى القَبِيحَ حَسَنًا مِنهُ ومِن مَعْشُوقِهِ كَما في المُسْنَدِ مَرْفُوعًا:

«حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي ويُصِمُّ»

فَهو يُعْمِي عَيْنَ القَلْبِ عَنْ رُؤْيَةِ مَساوِئِ المَحْبُوبِ وعُيُوبِهِ، فَلا تَرى العَيْنُ ذَلِكَ، ويُصِمُّ أُذُنَهُ عَنِ الإصْغاءِ إلى العَدْلِ فِيهِ، فَلا تَسْمَعُ الأُذُنُ ذَلِكَ، والرَّغَباتُ تَسْتُرُ العُيُوبَ، فالرّاغِبُ في الشَّيْءِ لا يَرى عُيُوبَهُ، حَتّى إذْ زالَتْ رَغْبَتُهُ فِيهِ أبْصَرَ عُيُوبَهُ، فَشِدَّةُ الرَّغْبَةِ غِشاوَةٌ عَلى العَيْنِ، تَمْنَعُ مِن رُؤْيَةِ الشَّيْءِ عَلى ما هو بِهِ، كَما قِيلَ:

هَوَيْتُكَ إذْ عَيْنِي عَلَيْها غِشاوَةٌ

فَلَمّا انْجَلَتْ قَطَّعْتُ نَفْسِي أُلُومُها

والدّاخِلُ في الشَّيْءِ لا يَرى عُيُوبَهُ، والخارِجُ مِنهُ الَّذِي لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ لا يَرى عُيُوبَهُ، ولا يَرى عُيُوبَهُ إلّا مَن دَخَلَ فِيهِ، ثُمَّ خَرَجَ مِنهُ، ولِهَذا كانَ الصَّحابَةُ الَّذِينَ دَخَلُوا في الإسْلامِ بَعْدَ الكُفْرِ خَيْرًا مِنَ الَّذِينَ وُلِدُوا في الإسْلامِ.

قالَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إنَّما تَنْتَقِضُ عُرى الإسْلامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، إذا وُلِدَ في الإسْلامِ مَن لا يَعْرِفُ الجاهِلِيَّةَ.

وَأمّا فَسادُ الحَواسِّ ظاهِرًا، فَإنَّهُ يُمْرِضُ البَدَنَ ويُنْهِكُهُ، ورُبَّما أدّى إلى تَلَفِهِ، كَما هو المَعْرُوفُ في أخْبارِ مَن قَتَلَهُمُ العِشْقُ.

وَقَدْ رُفِعَ إلى ابْنِ عَبّاسٍ وهو بِعَرَفَةَ شابٌّ قَدِ انْتَحَلَ حَتّى عادَ جِلْدًا عَلى عَظْمٍ، فَقالَ: ما شَأْنُ هَذا؟ قالُوا: بِهِ العِشْقُ، فَجَعَلَ ابْنُ عَبّاسٍ يَسْتَعِيذُ بِاللَّهِ مِنَ العِشْقِ عامَّةَ يَوْمِهِ. الثّامِنُ: أنَّ العِشْقَ كَما تَقَدَّمَ هو الإفْراطُ في المَحَبَّةِ، بِحَيْثُ يَسْتَوْلِي المَعْشُوقُ عَلى قَلْبِ العاشِقِ، حَتّى لا يَخْلُوَ مِن تَخَيُّلِهِ وذِكْرِهِ والفِكْرِ فِيهِ، بِحَيْثُ لا يَغِيبُ عَنْ خاطِرِهِ وذِهْنِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَشْتَغِلُ النَّفْسُ عَنِ اسْتِخْدامِ القُوَّةِ الحَيَوانِيَّةِ والنَّفْسانِيَّةِ فَتَتَعَطَّلُ تِلْكَ القُوَّةُ، فَيَحْدُثُ بِتَعْطِيلِها مِنَ الآفاتِ عَلى البَدَنِ والرُّوحِ ما يَعِزُّ دَواؤُهُ ويَتَعَذَّرُ، فَتَتَغَيَّرُ أفْعالُهُ وصِفاتُهُ ومَقاصِدُهُ، ويَخْتَلُّ جَمِيعُ ذَلِكَ، فَتَعْجِزُ البَشَرُ عَنْ صَلاحِهِ، كَما قِيلَ:

يا أَيُّها الرَجُلُ المُعَذِّبُ قَلبَهُ

أَقصِر فَإِنَّ شِفاءَكَ الإِقصارُ

الحُبُّ أَوَّلُ ما يَكونُ لِجاجَةً

تَأتي بِهِ وَتَسوقُهُ الأَقدارُ

حَتّى إِذا اِقتَحَمَ الفَتى لُجَجَ الهَوى

جاءَت أُمورٌ لا تُطاقُ كِبارُ

وَإِذا نَظَرتَ إِلى المُحِبِّ عَرَفتَهُ

وَبَدَت عَلَيهِ مِنَ الهَوى آثارُ

قُل ما بَدا لَكَ أَن تَقولَ فَرُبَّما

ساقَ البلاءَ إِلى الفَتى المِقدارُ

والعِشْقُ مَبادِيهِ سَهْلَةٌ حُلْوَةٌ، وأَوْسَطُهُ هَمٌّ وشُغْلُ قَلْبٍ وسَقَمٌ، وآخِرُهُ عَطَبٌ وقَتْلٌ، إنْ لَمْ تَتَدارَكْهُ عِنايَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعالى، كَما قِيلَ:

وَعِشْ خالِيًا فالحُبُّ أَوَّلُهُ عَنا

وأَوْسَطُهُ سَقَمٌ وآخِرُهُ قَتْلُ

وَقالَ آخَرُ:

تَوَلَّعَ بِالعِشْقِ حَتّى عَشِقْ

فَلَمّا اسْتَقَلَّ بِهِ لَمْ يُطِقْ

رَأى لُجَّةً ظَنَّها مَوْجَةً

فَلَمّا تَمَكَّنَ مِنها غَرِقْ

والذَّنْبُ لَهُ، فَهو الجانِي عَلى نَفْسِهِ، وقَدْ قَعَدَ تَحْتَ المَثَلِ السّائِرِ: «يَداكَ أوْكَتا، وفُوكَ نَفَخَ»». (انتهى كلام ابن القيم)

وسئل طبيبٌ، ما العشق؟ قال: شغل قلب فارغ ([٢٩]).

فضلًا عن أن أغلب قصص العشق انتهت بالموت كمدًا أو الجنون حبًا أو الفراق زمنًا..، لأن العاشقَيْن يتوهمان أنه يمكن لحالهما أن يدوم إلى أبد الآبدين، وأن كلا منهما مجعولاً للآخر منذ بداية الزمان، يعيشان حالة تمزج الخيال بالواقع،

والوهم بالحقيقة، والأحلام بالأشياء...

أما المرارة والخيبة فتأتيان بعد حين حيث يدرك العاشقان أن بقاء هوية الحب مستديمة خالدة مع بقاء شعلته ملتهبة

حدث هذا مع كليوباترا وأنطونيو، وروميوا وجولييت، ومجنون ليلى، وغيرهم...

([٢٩]) مصارع العشاق، جعفر بن أحمد القاري البغدادي، ص: ١٠٧ .

مَلِكَة تعشق فتاها

عندما ينفذ الحب إلى قلب إنسان، ويتمكن منه، ويستولي عليه، يُنسيه منصبه ومكانته وهيبته...

هذا ما حدث مع مَلِكَة مُتَوَّجَة، وسيدة مجتمع ذات منصب وجمال، وامرأة تأمر فتُجاب، وتحكم فتُطاع.

«صاح المنادى في موسم الحج، لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح» وكذلك كان يفعل خلفاء بني أمية؛ يأمرون صائحهم في الموسم: أن يدل الناس على مفتي مكة وإمامها وعلمها، ليلقوه بمسائلهم في الدين، ثم ليمسك غيره عن الفتوى، إذ هو الحجة القاطعة لا ينبغي أن يكون معها غيرها مما يختلف عليها أو يعارضها، وليس للحجج إلا أن تظاهرها، وتترادف على معناها.

وجلس عطاء يتحين الصلاة في المسجد الحرام. فوقف عليه رجل وقال: يا أبا محمد، أنت أفتيت كما قال الشاعر:

سل الفتى المكي هل في تزاور

وضَمَّة مشتاق الفؤاد جناحُ

أقول: معاذ الله أن يُذهِب التقى

تلاصق أكبادٍ بهن جراحُ

فرفع الشيخ رأسه وقال: والله ما قلت شيئًا من هذا، ولكن الشاعر هو الذي نحلني هذا الرأي الذي نفثه الشيطان على لسانه، وإني لأخاف أن تشيع القالة في الناس، فإذا كان غد، وجلستُ في حلقتي، فاغد عليَّ، فإني قائل شيئاً.

وذهب الخبر يؤجى النار، وتعالم الناس أن عطاء سيتكلم في الحب، وعجبوا كيف يدري الحب أو يحسن أن يقول فيه مَن غبر عشرين سنة فراشه المسجد. وقد سمع عن عائشة أم المؤمنين، وأبي هريرة صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وابن عباس بحر العلم!

وقال جماعة منهم، هذا رجل صامت أكثر وقته، وما تكلم إلا خُيِّل إلى الناس أنه يؤيَّد بمثل الوحي، فكأنما هو نجى ملائكة يسمع ويقول، فلعل السماء موحية إلى الأرض بلسانه وحيًا في هذه الضلالة التي عمت الناس وفتنتهم بالنساء والغناء.

ولما كان غد جاء الناس أرسالاً إلى المسجد، حتى اجتمع منهم الجمع الكثير. قال عبد الرحمن بن عبد الله أبي عمار: وكنتُ رجلًا شابًا من فتيان المدينة، وفي نفسي ومن الدنيا ومن هوى الشباب، فغدوت مع الناس، وجئتُ وقد تكلم أبو محمد وأفاض، ولم أكن رأيته فإذا هو في مجلسه كأنه غراب أسود، إذ كان ابن أمَة سوداء تسمى «بركة» ورأيته مع سواده أعور أفطس أشل أعرج مفلفل الشعر، لا يتأمل المرء منه طائلاً، ولكنك تسمعه يتكلم فتظن منه ومن سواده - والله – أن هذه

قطعة ليل تسطع فيها النجوم، وتصعد من حولها الملائكة وتنزل.

قال: وكان مجلسه في قصة يوسف عليه السلام، ووافقته وهو يتكلم في تأويل قوله تعالى:

«وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ» (يوسف: ٢٣، ٢٤)

قال عبد الرحمن: فسمعتُ كلامًا قدسيًا تضع له الملائكة أجنحتها من رضى وإعجاب بفقيه الحجاز. حفظتُ منه قوله:

عجبًا للحُب!

هذه ملكة تعشق فتاها الذي ابتاعه زوجها بثمن بخس، ولكن أين ملكها وسطوة ملكها في تصوير الآية الكريمة؟ لم تزد الآية على أن قالت:

«وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي»

و «ٱلَّتِي» هذه كلمة تدل على كل امرأة كائنة مَن كانت؛ فلم يبق على الحب ملك ولا منزلة؛ وزالت الملكة من الأنثى!

وأعجب من هذه الكلمة «رَوَدَتْهُ» وهي بصيغتها المفردة حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها لون بعد لون؛ ذاهبة إلى فن، راجعة من فن، لأن الكلمة مأخوذة من رودان الإبل في مشيتها؛ تذهب وتجيء في رفق، وهذا يصور كبرياء الأنثى إذ تختال وتترقق في عرض ضعفها الطبيعي كأنما الكبرياء شيء آخر غير طبيعتها؛ فمهما تتهالك على مَن تحب وجب أن يكون لهذا «الشيء الآخر» مظهر امتناع أو مظهر تحير أو مظهر اضطراب، وإن كانت الطبيعة من وراء ذلك مندفعة ماضية مصممة.

ثم قال:

«عَن نَّفْسِهِ»

ليدل على أنها لا تطمع فيه، ولكن في طبيعته البشرية، فهي تعرض ما تعرض لهذه الطبيعة وحدها، وكأن الآية مصرحة في أدب سامٍ كل السمو، منزه غاية التنزيه بما معناه:

«إن المرأة تبذل كل ما تستطيع في إغرائه وتثبيته، مقبلة عليه ومتدلية ومتبذلة ومنصبة من كل جهة، بما في جسمها وجمالها على طبيعته البشرية، وعارضة كل ذلك عرض امرأة خلعت أول ما خلعت أمام عينيه ثوب المُلك».

ثم قال:

«وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ»

ولم يقل: «أغلقت» وهذا يُشعِر أنها لما يئست، ورأت منه محاولة الانصراف، أسرعت في ثورة نفسها مهتاجة تتخيل القفل الواحد أقفالاً عدة؛ وتجري من باب إلى باب، وتضطرب يدها على الأغلاق، كأنما تحاول سد الأبواب لا إغلاقها فقط.

«وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ»

ومعناها في هذا الموقف أن اليأس قد دفع بهذه المرأة إلى آخر حدوده، فانتهى إلى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية، ولم تعد لا ملكة ولا امرأة، بل أنوثة حيوانية صرفة، متكشفة، مصرحة، كما تكون أنثى الحيوان في أشد اهتياجها وغليانها.

هذه ثلاثة أطوار يترقى بعضها من بعض، وفيها طبيعة الأنوثة نازلة من أعلاها إلى أسفلها.

فإذا انتهت المرأة إلى نهايتها ولم يبق وراء ذلك شيء تستطيعه أو تعرضه بدأت من ثم عظمة الرجولة السامية المتمكنة في معانيها، فقال يؤسف:

«مَعَاذَ ٱللَّهِۖ»

ثم قال: «إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ»

ثم قال: «إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ»

وهذه أسمى طريقة تنبيه ضمير المرأة في المرأة، إذا كان أساس ضميرها في كل عصر هو اليقين بالله، ومعرفة الجميل، وكراهة الظلم.

ولكن هذا التنبيه المترادف ثلاث مرات لم يكسر من نزوتها، ولم يفثأ تلك الحدة، فإن حبها كان قد انحصر في فكرة واحدة اجتمعت بكل أسبابها في زمن، في مكان، في رجل، فهي فكرة محتسبة كأن الأبواب مغلقة عليها أيضًا، ولذا بقيت المرأة ثائرة ثورة نفسها، وهنا يعود الأدب الإلهي السامي إلى تعبيره المعجز فيقول:

«وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ»

كأنما يومئ بهذه العبارة إلى أنها ترامت عليه، وتعلقت به والتجأت إلى وسيلتها الأخيرة، وهي لمس الطبيعة بالطبيعة لإلقاء الجمرة في الهشيم...!

جاءت العاشقة في قضيتها ببرهان الشيطان يقذف به في آخر محاولته.

وهنا يقع ليوسف عليه السلام برهان ربه كما وقع لها هي برهان شيطانها فَلَوْلا برهان ربه لكان رجلاً من البشر في ضعفه البشري.

قال أبو محمد: وهاهنا المعجزة الكبرى، لأن الآية تريد ألا تنفي عن يوسف عليه السلام فحولة الرجولة، حتى لا يُظَن به، ثم

هي تريد من ذلك أن يتعلم الرجال، خاصة الشباب منهم، كيف يتسامون بهذه الرجولة فوق الشهوات، حتى في الحالة التي قدرة الطبيعة؛ حالة ملكة مطاعة فاتنة عاشقة مختلة متعرضة متكشفة متهالكة. هنا لا ينبغي أن ييأس الرجل، فإن الوسيلة التي تجعله لا يرى شيئًا من هذا هي أن يرى برهان ربه.

وهذا البرهان يؤوله كل إنسان بما شاء، فهو كالمفتاح الذي يوضع في الأقفال كلها فيفضها، كلها، فإذا مثّل الرجل لنفسه في تلك الساعة أنه هو وهذه المرأة منتصبان أمام الله يراهما، وأن أماني القلب التي تهجس فيه ويظنها خافية إنما هي صوت يسمعه الله؛ وإذا تذكر أنه سيموت ويقبر، وفكر فيما يصنع الثرى في جسمه هذا الإثم الذي يقترفه الآن سيكون مرجعه عليه في أخته وبنته.

إذا فكر في هذا ونحوه؟

احفظوا هذه الكلمة الواحدة التي فيها أكثر الكلام، وأكثر المواعظ، وأكثر التربية، والتي هي كالدرع في المعركة بين الرجل والمرأة والشيطان كلمة «رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ» » (٣٠).

(٣٠) تأملات في سورة يوسف، محمود محمد عمارة، ص: ٢٣٥-٢٤٠ نقلاً عن كتاب وحي القلم للرافعي.

فوائد العشق ومنافعه

وقد يكون العشق نفحة لها منافع «من جملتها: رقة الطبع، وترويح النفس، وخفتها، وزوال ثقلها، ورياضتها، وحملها على مكارم الأخلاق، من الشجاعة والكرم والمروءة ورقة الحاشية ولطف الجانب، وقد قيل ليحيى بن معاذ الرازي:

إن ابنك قد عشق فلانة، فقال: الحمد لله الذي صيره إلى طبع الآدمي.

وقال بعضهم: العشق دواء أفئدة الكرام.

وقال غيره:

العشق لا يصلح إلا لذي مروءة ظاهرة، وخليقة طاهرة، أو لذي لسان فاضل، وإحسان كامل، أو لذي أدب بارع، وحسن ناصع.

وقال آخر:

العشق يشجع جنان الجبان، ويصفي ذهن الغبي، ويسخى كف البخيل، ويذل عزة الملوك، ويسكن نوافر الأخلاق، وهو أنيس مَن لا أنيس له، وجليس مَن لا جليس له.

وقال آخر:

العشق يزيل الأثقال، ويلطف الروح، ويصفي كدر القلب، ويحمل على مكارم الأخلاق.

وقال بعض العلماء الحكماء: العشق يروّض النفس، ويهذب الأخلاق، وإظهاره طبيعي، وإخفاؤه تكليفي.

وقال آخر: مَن لم يهيج نفسه بالصوت الشجي والوجه البهي، فهو فاسد المزاج، يحتاج إلى علاج:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى

فما لك في طيب الحياة نصيب

وقال أبو إسحاق بن إبراهيم:

أرواح العشاق عطرة لطيفة، وأبدانهم رقيقة خفيفة، نزهتهم المؤانسة، وكلامهم يحيي موات القلوب، ويزيد في العقول، ولولا العشق والهوى لبطل نعيم الدنيا.

وقال آخر: العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان، إن تركته ضرك، وإن أكثرت منه قتلك:

خليلي إن الحب فيه لذاذة
وفيه شفاء دائم وكروب
على ذاك ما عيش يطيب بغيره
ولا عيش إلا بالحبيب يطيب
ولا خير في الدنيا بغير صبابة
ولا في نعيم ليس فيه حبيب» (٣١).

أما ابن حزم صاحب «طوق الحمامة» فيقول:

سألتُ فقيه الحُبِّ عن عِلّة الهوى
وقلت له أشكو إلى الشيخ حاليا
فقال دواء الحب أن تلصق الحشا
بأحشاء مَن تهوى إذا كنت خاليا
وتَتَّحِدا من بعد ذاك تعانقاً
وتلثمه حتى يرى لك ناهيا
فتقضي حاجات الفؤاد بأسرها

(٣١) الداء والدواء، ابن القيم، ص: ٤١٧، ٤١٨ بتصرف.

على الأمن ما دام الحبيب مؤاتيا

إذا كان هذا في حلال فحبذا.

وصالبه الرحمن تلقاه راضيا

وإن كان هذا في حرام فإنه

عذاب به تلقى العنا والمكاويا

وقال آخر:

وما العِشقُ إلا عفة ونزاهةٌ

وأنسُ قلوبٍ أنْسُهنَّ التَّغزُّلُ

وإني لأستحيي الحبيب من التي

تريبُ وأدْعى للجميل فأجْمِلُ

وهذا عاشق يتمنى ويدعو أن يُستَجاب دعاؤه:

وددتُ بأن الحب يُجمَع كله

فيُقذف في قلبي، وينفلق الصدر

فلا ينقضي ما في فؤادي من الهوى

ومن فرحي بالحب أو ينقضي العمر

ويقول قيس بن الملوح:

وَما الناسُ إِلّا العاشِقونَ ذَوُو الهَوى

وَلا خَيرَ فيمَن لا يُحِبُّ وَيَعشَقُ

وقال آخر:

ولا خير في الدنيا بغير صبابة

ولا في نعيم ليس فيه حبيب

وحديث الحبيب لا يُشبَع منه:

من الخفرات البيض ودَّ جليسها

إذا حدَّثت أحدوثة لو تُعيدُها

قيل لأحدهم:

هل يسلم أحدٌ من العشق؟

قال نعم: الجِلْفُ الجافي.

«ورأى أعرابي صبية جميلة تسير في صحراء العرب وراء أغنام أهلها... ورأى من حسنها وفتنة عينيها ما جعله يبدع:

أَوَحْشِيَّة العينين أين لك الأهلُ

أبِا الحَزْن حلُّوا أم محلُّهُم السَّهْلُ؟!

وأيَّةُ أرضٍ أخرجتك فإنّني

أراك من الفِرْدَوْسِ إذا فتِّشَ الأصلُ

قفي خبِّرينا ما طَعِمْتِ وما الذي

شَرِبْتِ ومن أين استقلَّ بك الرَّحْلُ؟

لأنَّ علامات الجِنان مُبِينَةٌ عليك

وإنَّ الشَّكل يُشبِهُه الشَّكْلُ

تناهيتِ حُسناً في النِّساء فإنْ يكن

لبَدرِ الدُّجَى نَسْلٌ فأنتِ له نسلُ!» (٣٢).

(٣٢) جريدة الرياض الاثنين ١٦ رجب ١٤٣١ هـ - ٢٨ يونيو ٢٠١٠م - العدد ١٥٣٤٤

ومن جميل ما فعل الحبُّ بأهله؛ «أن بدوية جاءت إلى أختٍ لها، فقالت: كيف بك من حُبِّ فلان؟ قالت: حرَّك والله حُبُّه الساكن! وسكَّن المتحرك، ثم أنشأت تقول:

فَلَو أن ما بي بالحَصى فلَقَ الحصى

وبالرِّيح لم يُسْمَعْ لهنَّ هُبُوبُ

ولو أنني أستغفر الله كلما

ذكرتُكَ لم تُكْتَبْ عليَّ ذنوب» (٣٣).

حتى وقت اشتداد المعركة، يفتخر المُحبُّ بِذِكْر محبوبته:

ولقد ذكرتكِ والرماح كأنها

أشطان بئر في لبان الأدهم

فوددتُ تقبيل السيوف لأنها

برقت كبارق ثغركِ المتبسِّم

(٣٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزيه، ص: ٢٧٤ .

وبلغ العشق بأحدهم أن يتعلق بكل ما له صلة بالمحبوب من خيام أو ديار:

أمُرُّ على الديار ديار سلمى

أقبِّلُ ذا الجدار وذا الجدار

وما حُبُّ الديار شغفن قلبي

ولكن حُبّ مَن سكَن الديار

والرسوم والأطلال تُهيِّج مشاعر المُحبين، وتثير شجونهم:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيْبٍ وَمَنْزِلِ

بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فَفَاضَتْ دُمُوعُ العَيْنِ مِنِّيْ صَبَابَةً

عَلَى النَّحْرِ حَتَّى بَلَّ دَمْعِيَ مِحْمَلِي

حتى الشروق والغروب يُذكِّران بالمحبوبة:

وما ذَرّ قَرْنُ الشمسِ إلا ذكرتُها
وأذكُرها في وقت كلّ غروبِ
وأذكرها ما بين ذاك وهذه
وبالليل أحلامي وعند هُبوبي
وقد شَفَّني شَوْقِي وأبعدني الهوى
وأعيا الذي بي طِبَّ كلِّ طبيب
وأَعْجَبُ أنّي لا أموتُ صَبَابةً
وما كَمَدٌ من عاشقٍ بعجيب
وكلُّ محبٍّ قد سلا غيرَ أنني
غريبُ الهوى يا وَيْحَ كلَّ غريب
وكم لام فيها من أخٍ ذي نصيحةٍ
فقلت له أَقصِر فغيرُ مُصيب
أتأمر إنساناً بفُرقة قلبه
أتصلحُ أجسامٌ بغير قلوب

وإذا كان الفراق يؤلم بعض المحبين، ويؤجج شوقهم، فالقرب عند البعض الآخر يزيد الشوق اشتعالًا:

وأعظم ما يكون الشوق يومًا

إذا دنت الخيامُ من الخيامِ

وإذا كان البعض يرى الحب في الوفاء للحبيب الأول:

نقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى

ما الحُبُّ إلا للحبيب الأول

فإن هناك مَن يرى الحُبُّ في الوفاء لآخر حبيب:

دع حب أول مَن كلفت بحبه

ما الحب إلا للحبيب الآخر

ما قد تولى لا ارتجاع لطيبه

هل غائب اللذات مثل الحاضر

الفصل بين مَن أباح العِشق ومَن منعه

بين فوائد العشق وأضراره..

والقول بأنه اختيار أو إجبار... يدور النزاع.

ولِفَصْل هذا النزاع يقول ابن قيم الجوزية: «أن مبادئ العشق وأسبابه اختيارية داخلة تحت التكليف، فإن النظر والتفكُّر والتعرُّض للمحبة أمر اختياري، فإذا أتى بالأسباب كان تَرتُّبُ المُسبَّبِ عليها بغير اختياره، كما قيل:

تَوَلَّعَ بِالْعِشْقِ حَتَّى عَشِقْ

فَلَمَّا اسْتَقَلَّ بِهِ لَمْ يُطِقْ

رَأَى لُجَّةً ظَنَّهَا مَوْجَةً

فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهَا غَرِق

وهذا بمنزلة السُّكر مع شرب الخمر، فإن تناوُل المُسكِر اختياريّ، وما يتولَّد عنه من السُّكْر اضطراريّ، فمتى كان السببُ واقعاً باختياره لم يكن معذورًا فيما تولَّد عنه بغير اختياره، فمتى كان السببُ محظورًا لم يكن السَّكران معذورًا.

ولا ريب أن متابعة النظر، واستدامة الفكر بمنزلة شرب المُسكِر، فهو يُلام على السبب...

ولهذا إذا حصل العشق بسبب غير محظور؛ لم يُلَمْ عليه صاحبه، كمن كان يعشق امرأته ثم فارقها، وبقا عشقها غير مفارق له، فهذا لا يلامُ على ذلك، وكذلك إذا نظر نظرة فجأة، ثم صرف بصره، وقد تمكَّن العشق من قلبه بغير اختياره، على أن عليه دفعه، وصرفَه عن قلبه بِضدِّه، فإذا جاء أمرٌ يَغْلِبُه؛ فهناك لا يُلام بعد بذل الجهد في دفعه.

ومما يُبَيِّنُ ما قلناه: أن سكْرَ العشق أعظم من سُكْر الخمر، كما قال تعالى عن عُشَّاق الصور من قوم لوط:

«لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ»» (٣٤).

(٣٤) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزيه، ص: ٢٢٥ .

عُشَّاق

لم يتمكنوا من كتم حبهم

ولَمَّا كان العشقُ أمرًا اضطراريًّاً، وخارج عن مقدور البشر، للقلب معه، كان واردًا الوقوع فيه، «قال رجل لِعُمر بن الخطاب - رضي الله عنه – يا أمير المؤمنين: إني رأيتُ امرأة فَعَشِقْتُها! فقال: عمر: ذاك مما لا يُملَك.

وقال القاضي أبو عمر محمد بن أحمد النوقاتي في كتاب «محنة الظراف»: العُشَّاق معذورون على الأحوال، إذ العشق إنما دهاهم عن غير اختيار، بل اعتراهم عن جبْر واضطرار، والمرء إنما يُلامُ على ما يستطيع من الأمور، لا على المقضيّ عليه والمقدور.

.. وهؤلاء النسوة قطعن أيديهن لَمَّا بدا لهنَّ حسنُ يوسف - عليه السلام – وما تمكَّن حبُّه من قلوبهن، فكيف لو شُغِفْن حُبَّاً؟!

فإذا كان هذا من مجرد الرؤية، فكيف بالمحبة التي لا تُمْلَك؟!

وقد فسَّر كثير من السلف قوله تعالى:

«رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ» (البقرة: ٢٨٦)

بالعشق. وهذا لم يريدوا به التخصيص، وإنما أرادوا به التمثيل، وأن العشق من تحميل ما لا يُطاق. والمراد بالتحميل ها هنا التحميل القدريُّ، لا الشرعيُّ الأمريُّ. »([٣٥]).

يقول ابن حزم: «أن للحُبِّ حكمًا على النفس ماضيًا، وسلطانًا قاضيًا، وأمرًا لا يُخالَف، وحدًّا لا يُعصَى، وملكًا لا يتعدى، وطاعة لا تصرف، ونفاذ لا يُرَدّ، وأنه ينقض المبرر، ويحلّ المبرم، ويحلّل الجامد، ويخلّ الثابت، ويحل الشغاف، ويحل الممنوع،... فلا يملك الإنسان حينئذ لنفسه صرفًا ولا عدلًا، وهذا من أبعد غايات الشوق، وأقوى تحكمه على العقل، وكم مِن مصون الستر، مسبل القناع، مسدول الغطاء قد كشف الحب ستره، وأباح حريمه، وأهمل حماه، فصار بعد الصيانة علمًا، وبعد السكون مثلًا، ... فسهل ما كان وعرًا، وهان ما كان عزيزًا، ولان ما كان شديدًا » ([٣٦]).

وهل في الدنيا أجمل من «مُحبّين عدما الرقباء، وأمنا الوشاة، وسلما من البين، ورغبا عن الهجر، وبَعُدَا عن الملل، وفقدا العذَّال، وتوافقا في الأخلاق، وتكافيا في المحبة، وكان اجتماعُهما على ما يرضي الربّ من الحال...» ([٣٧]).

([٣٥]) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزيه، ص: ٢١٨، ٢٢١،
([٣٦]) في الحب والحب العذري، د/ صادق جلال العظم، ص: ٣٤، ٣٥ عن طوق الحمامة، ص: ٢٧، ٣٩.
([٣٧]) طوق الحمامة، ابن حزم، ص: ٦٣ .

وكيف لا وقد وصف ابن حزم حالة الوصال بين العشاق بقوله: «وهو حظ رفيع، ومرتبة سرية، ودرجة عالية وسعد طالع، بل هو الحياة المجددة، والعيش السني، والسرور الدائم، ولولا أن الدنيا دار ممر ومحنة وكدر والجنة دار جزاء وأمان من المكاره، لقلنا إن وصل الحبيب هو الصفاء الذي لا كدر فيه، والفرح الذي لا شائبة ولا حزن معه، وكمال الأماني، ومنتهى الأراجي... وأنه لمعجز ألسنة البلغاء، ومقصر فيه بيان الفصحاء، وعنده تطيش الألباب...»[٣٨].

ولما كان العشق مرضًا لا تخفى أعراضه، ولو حاول العاشق إخفاءها، ولما كان الجميع مُعَرَّض أن يقوده قلبه، ويشده جمال، أو يجذبه حُسْن، إلا أن ما نحن بصدده هو «الكلام عن العشق العفيف، من الرجل الظريف، الذي يأبى له دينه وعفته، ومروءته، أن يفسد ما بينه وبين الله، وما بينه وبين معشوقه بالحرام، وهذا عشق السلف الكرام والأئمة الأعلام، هذا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة عشق حتى اشتهر أمره، ولم يُنكَر عليه، وعُدَّ ظالمًا مَن لامه، ومن شعره:

(٣٨) الحب والحب العذري، ص: ٦٠، ٦١ .

كتمت الهوى حتى أضر بك الكتم

ولامك أقوام ولومهم ظلم

فنَمَّ عليك الكاشحون، وقبلهم

عليك الهوى قد نَمَّ، لو ينفع الكتم

فأصبحت كالهندي إذ مات حسرة

على إثر هند أو كمن شفه سقم

تجنَّبت إتيان الحبيب تأثماً

ألا إن هجران الحبيب هو الإثم

فَذق هجرها، قد كنت تزعم أنه

رشاد، ألا يا ربما كذب الزعم

وقد شفع النبي صلى الله عليه وسلم لعاشق أن تواصله معشوقته بأن تتزوج به فأبت، وذلك في قصة مغيث وبربرة لما رآه النبي صلى الله عليه وسلم يمشي خلفها ودموعه تجري على خديه، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو راجعته»، فقالت: أتأمرني يا رسول الله؟ قال: «لا إنما أشفع»، فقالت: لا حاجة لي به، فقال لعمه: «يا عباس ألا تعجب من حب مغيث بربرة، ومن بغضها له»

ولم ينكر عليه حبها...

وشفع أبو بكر وعثمان رضي الله عنهما لعشاق إلى معشوقهم الجائز وصلهن...

وكذلك فعل علي- رضي الله عنه – عندما أُتِي بغلام من العرب وُجِد في دار قوم بالليل، فقال له:

ما قصتك؟

قال: لست بسارق، ولكني أصدقك:

تعلقت في دار الرياحي خودة

يذل لها من حُسن منظرها البدر

لها في بنات الروم حُسن ومنصب

إذا افتخرت بالحُسن خافتها الفخر

فلما طرقت الدار من حر مهجتي

أبيت فيها من توقدها الجمر

تبادر أهل الدار بي ثم صيحوا

هو اللص محتوماً له القتل والأسر

فلما سمع علي بن أبي طالب - رضي الله عنه – شعره رق له، وقال للمهلب بن رباح، اسمح له بها، فقال: يا أمير المؤمنين: سله مَن هو؟

فقال: النهاس بن عيينة، فقال: خذها فهي لك.

وكان لسليمان بن عبد الملك غلام وجارية يتحابان، فكتب الغلام إليها يومًا:

ولقد رأيتكِ في المنام كأنما

عاطيتني من ريق فيك البارد

وكأن كفك في يدي وكأننا

بتنا جميعًا في فراش واحد

فطفقت يومي كله متراقدًا

لأراك في نومي، ولست بِراقد

فأجابته الجارية:

خيرًا رأيت وكل ما أبصرته

ستناله مني برغم الحاسد

إني لأرجو أن تكون معانقي

فتبيت مني فوق ثدي ناهد

وأراك بين خلاخلي ودمالجي

وأراك فوق ترائبي ومجاسدي

فبلغ سليمان ذلك فأنكحها الغلام ...

.. والعشق المباح: هو العشق الواقع من غير قصد، كعشق مَن وصفت له امرأة جميلة، أو رآها فجأة من غير قصد، فتعلق قلبه بها، ولم يحدث له ذلك العشق معصية، فهذا لا يملك ولا يعاقب عليه، والأنفع له مدافعته والاشتغال عنه بما أنفع له منه، ويجب التكتم والعفة والصبر فيه على البلوى، فيثبته الله على ذلك ويعوضه على صبره لله وعفته، وتركه طاعة هواه، وإيثار مرضاة الله وما عنده.

وحَسْب قتيل العشق أن يصحّ له هذا الأثر عن ابن عباس – رضي الله عنهما -:

«مَن عشق وكتم، وعف وصبر، غفر الله له وأدخله الجنة»

على أنه لا يدخل الجنة حتى يصبر لله، ويعف لله، ويكتم لله، لكن العاشق إذا صبر وعف وكتم مع قدرته على معشوقه، وآثر محبة الله وخوفه ورضاه، هذا مِن أحق مَن دخل تحت قوله تعالى:

«وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ» »([٣٩]).

هذا ما حدث مع يوسف الصديق، فقد كان - عليه السلام - «من العفاف أعظم ما يكون، فإن الداعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حق غيره، فإنه - عليه السلام – كان شابًا، والشباب مركب الشهوة، وكان عزبًا، ليس عنده ما يعوِّضه، وكان غريبًا عن أهله ووطنه، والمقيم بين أهله وأصحابه يستحيي منهم أن يعلموا به، فيسقط من عيونهم، فإذا تغرَّب زال هذا المانع. وكان في صورة المملوك، والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحرُّ.

وكانت المرأة ذات منصب وجمال، والداعي مع ذلك أقوى من داعي مَن ليست كذلك، وكانت هي الطالبة، فتزول بذلك كُلْفة تعرَّض الرَّجل، وطلبه، وخوفه من عدم الإجابة، وزادت مع

(٣٩) الداء والدواء، ابن القيم، ص: ٤١٨ – ٤٦٠ بتصرف.

الطلب الرغبة التامَّة والمراودة التي يزول معها ظنُّ الامتحان والاختبار؛ ليعلم عفافه من فجوره، وكانت في محل سُلطانها وبيتها، بحيث تعرف بحال وقت الإمكان ومكانه الذي لا تناله العيون، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب؛ لتأمن هجوم الداخل على بغتة، وأتته بالرَّغبة والرَّهبة، ومع هذا كله فَعَفَّ لله، ولم يُطِعْها، وقدَّم حق الله، وحقَّ سيدها على ذلك كلِّه، وهذا أمر لو ابتلي به سواه؛ لم يُعْلَم كيف كانت تكون حالُه...

ويروى عن اسحاق بن إبراهيم: كان بالكوفة فتى جميل الوجه، شديد التعبد والاجتهاد فنزل في جوار قوم من النَّخع فنظر إلى جارية منهنَّ جميلة فهويها، وهام بها عقله، ونزل بالجارية، ما نزل به، فأرسل يخطبها من أبيها، فأخبره أبوها أنها مسمَّاة لابن عمٍّ لها، فلما اشتد عليهما ما يقاسيان من ألم الهوى؛ أرسلت له الجارية: قد بلغني شدة محبتك لي، وقد اشتد بلائي بك، فإن شئت زرتُك، وإن شئت سهَّلت لك أن تأتيني إلى منزلي، فقال للرسول: ولا واحدة من هاتين الخُلَّتين، «إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم»

أخاف نارًا لا يخبو سعيرها، ولا يُخمَد لهيبُها، فلمَّا أبلغها الرسول قوله؛ قالت: وأراه مع هذا يخاف الله؟ والله ما أحدٌ أحقَّ بهذا من أحدٍ، وإن العباد فيه لمشتركون، ثم انخلعت من الدنيا، وألقت علائقها خلف ظهرها، وجعلت تتعبد، وهي ما ذلك تذوب، وتَنْحلُ حُبّاً للفتى، وشوقًا إليه، حتى ماتت من

ذلك، فكان الفتى يأتي قبرها، فيبكي عنده، ويدعو لها، فغلبته عينه ذات يوم على قبرها، فرآها في منامه في أحسن منظر، فقال كيف أنتِ، وما لقيت بعدي؟ فقالت:

نعم المحبة يا سُؤلي محبتكم

حبٌّ يقودُ إلى خير وإحسان

فقال: على ذلك إلى ما صرتِ؟ فقالت:

إلى نعيمٍ وعَيْشٍ لا زوال له

في جنّة الخُلْدِ ملكٌ ليس بالفاني

فقال لها: اذكريني هناك، فإني لستُ أنساكِ، فقالت: ولا أنا والله أنساك! ولقد سألت مولاي ومولاك أن يجمع بيننا، فأعِنِّي على ذلك بالاجتهاد، فقال لها: متى أراكِ؟ قالت: ستأتينا عن قريب، فترانا، فلم يعش الفتى بعد الرؤيا إلا سبع ليالٍ حتى مات» ([٤٠]).

([٤٠])روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ص: ٤٤٩، ٤٥٠

وحقَّ للعِفّة أن يفخر بها الناس:

وإذا هممنا صدَّنا وازع التّقى
فوَلَّى على أعقابه الهَمُّ خاسئًا

***

قلوب أحرقتها النساء

لَمَّا كان القلب الذي بين ضلوعنا لا نملكه...

يتقلّب بطبيعته...

ويحب بفطرته...

فلربما خرج يومًا عن طوعنا...

ووقع في حب...

أو مالَ إلى جمال...

أو شدّه حُسْن...

طبيعة... وميول...

وتحتاج هذه الطبيعة وتلك الميول في مقاومتها إلى عزيمة، وأحيانًا عزيمة نبي، حتى النبي استعان بربه:

«وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ»

وهل لنا غيره نستعين به؟

نسأله سبحانه «أن يجلعنا ممن آثر حبه على هواه، وابتغى بذلك قربه ورضاه» ([٤١])

على أن ما أسهل أن يقع الأدباء في الحب، «ناهيك لو كانت نفس هذا الأديب نفس فنان، يعشق الجمال ويتذوق مشاهد الحسن.. لَوجدته كل يوم غارقًا في حب امرأة جديدة، وقد يعدّه الناس خائنًا لعوبًا، وقد يصفونه أحيانًا بالدناوة، ولا يدركون أن نفوس بعض الأدباء هكذا تكون حينما يرتئيهم الجمال أو يطل عليهم بدوره.

قالت لي يومًا تلك المرأة الحكيمة: إن هذا طبع فيكم معشر الأدباء، فيمكن لهذا الأديب أو صاحب الفكر أن يهيم قلبه كل يوم بامرأة جديدة، ويحب امرأة جديدة، وقد يظلمه الناس، حينما ينعتونه بأنه زير نساء، ولكنه هو هكذا طبعه، مجبول أن يكون بهذه العاطفة المتوهجة، أو المتشعبة والحاضنة التي تسع كثيرًا من النساء.

كان معنى عجيبًا حقًا، عرفتني به تلك الحكيمة، كيف أدركته، وكيف استلهمته، خاصة أنها امرأة، ليس لها عمق بطبيعة الرجال، لكن قولها لا شك أعاد إلى نفسي تلك المقولة التي

([٤١]) الداء والدواء، ابن القيم، ص: ٤٦٠ بتصرف.

قالها دنجوان الصحافة قديماً محمد التابعي، وكنت أستنكر ما قال، وأتهمه فيما صرح وكشف من مخبوء ذاته وطبيعة جنانه.

لقد قال: جاء عليَّ وقت كنتُ على استعداد أن أعشق ٤٠ امرأة في وقت واحد.

مقولة قد لا تستنكر المرأة شيئًا من حياتها كما تستنكرها، وترفضها، وتعلن عليها سخطها وتذمرها، لكنها حقيقة في طبائع كثير من الرجال، يجب أن تعترف بها المرأة دون غضب أو صخب، أو ذم أو قدح.

قد يتملّكك العشق كثيرًا، ويعصف بك حب المرأة الجميلة الفتانة، ليسلمك إلى داء عضال، ومرض فتاك، تضيع معه أحلام عقلك، ومنابت رشدك، لتظل أسيرًا لصورة المرأة التي أذهلتك وملكتك، إن هذا الحب لا يشبه بشيء من معارف الدنيا ومعالمها، إلا بالسحر، نعم هو نوع من السحر والبلاء، إن أصيب به الإنسان، سهر الليل وجافاه المنام.

ولعله صورة من عبودية الإنسان للإنسان... واستعباد عنصر لعنصر، وأكثر النساء، يسعدن وينتشين، حينما تجد إحداهن مَن يحبها، ولا تدرك عمق ما يحيا به هذا العاشق الولهان، من آلام جرتها عليه جمالها ودلالها.

إنها سعيدة مسرورة غير عابئة بمحنته، ولعل هذا الموطن من أكثر المواطن التي تفقد المرأة فيها مشاعرها وإحساسها وإنسانيتها، فلا يهمها أن يكون هناك قلب يحترق، فليحترق أو حتى يتفحم، المهم أنها أسَرَته، واستعبدته، وجعلته تحت أقدامها... ليتحول هذا الجمال إلى نوع من الثقة أو صورة ممجوجة من صور الغرور.

أدرك سلفنا العظيم خطورة هذا الداء الوبيل داء العشق، وعرفوا كيف يتعاملون معه، وكيف يداوون بلاءه، حتى يبرأ منه الإنسان ويشفى منه فؤاده.. وأنا واحد من الناس كأي أحد قد أصبت به في مراحل من حياتي، فلما تداويت بعلاجات السلف الصالح، خرجت سالمًا والحمد لله، دون الولوع في غيبوبة هذا العشق وسكْره.

وحتى أنني اليوم، أرى تلك التي سيطرت على عقلي يومًا، وليس لها عليه اليوم أي سبيل أو غاية أو قوة أو سحر أو سلطان.. لأتعجب وأقول: كيف سمح عقلي لنفسه أن يكون ذليلاً لهذه المرأة يومًا ما؟

ما الذي أدهشه فيها وأشغل مرابض ولعه بها، قد تكون جميلة، لكن جمالها لا يصل إلى حد هذا السحر الذي يضني العقول ويذهب بالأحلام، ويأسر العقل ويشعل اللهفة.!

نعم تدور هذه المحادثة بيني وبين عقلي، حتى أدركت يومًا أن هذا الحب العاصف، وهم كبير، وموجة من الإعجاب جارفة، تحتاج منا فقط بعض المجاهدة، حتى تمر محنتها وتنطفئ قوتها، لننعم بعدها بالحرية العظيمة، التي كان يمكن أن تستبدل بالعبودية لامرأة.

نعم بعض المجاهدة، والتدريب على الهجر، والانشغال بالطاعة، مصحوبًا ذلك كله بالدعاء والمناجاة، فلا تلبث إلا أيامًا قليلة بعون الله، وتخرج من المحنة بطلًا جسورًا، لا تهدي عقلك وقلبك وحبك وعشقك إلا لربك، ولا تستطيع امرأة مهما تربعت على عروش الحسن والجمال، أن تحرك فيك شعرة واحدة، أو تمس قلبك بخاطر يغويه.

أما تركك لِسُبُل العلاج، واستسلامك لهذا الشعور الذي يجعلك عبدًا ذليلًا؟ فتبيت وتصحى هائما في خيال امرأة، وصورة امرأة وظلال امرأة، وتظل صورتها أمامك شاخصة في خيالك نوما ويقظة ذهابا وإيابا حلا وترحالا، قعودا ووقوفا؟

فهذا مالا يليق بالأسوياء، ولا يقبله ذوو العزائم.

جرب وجاهد وقاوم لتستريح.

قد ترى امرأة جميلة وتستحسن صورتها وهيأتها وتعجبك منها روحها وأناقتها، وتصرح لها أحيانا بذلك وتبديه، وهو نوع من الإعجاب بهذا الجمال ليس أكثر.

لكنك لو شعرت بانتقال نفسك من حالة الاعجاب إلى حالة المرض، فشمر عن ساعدك وابدأ في العلاج وانتصر لحريتك، فليس هناك أغلى من حريتك.

على كل من أصابه هذا البلاء أن يراجع كتاب الداء والدواء لابن القيم فبه إفادة عظيمة وهداية قويمة لكل حائر مصاب، أضناه العذاب» ([٤٢]).

([٤٢]) المقال للكاتب: حاتم سلامة.

المرأة

أخطر ما في حياة الإنسان

الإنسان بطبيعته يكره الرذائل، ويسعد بالفضائل، لكن لضعفه البشري ربما يقع في ذنب، أو يقارف إثمًا، إلا أن

«جميع الآثام التي حظرها الله تعالى على عباده ليس بينها وبين الإنسان أي انسجام فطري. فالظلم بأنواعه المختلفة محرم ويعين الإنسان على تجنبه أن الفطرة الإنسانية تشمئز منه. وشرب الخمر محرم، ويهون من أمر تحريمه أن الفطرة الإنسانية الأصيلة تعفها، وكذلك السرقة، والغش، والغيبة، والنميمة، وبقية المحرمات الأخرى، كلها لا تتفق مع مقتضيات الفطرة الإنسانية السليمة، ولا يجنح إلى شيء منها إلا مَن ابتلي بشذوذ أو انحراف في طبيعته وفطرته لسبب من الأسباب التي تطرأ في حياة الإنسان.

وإنما يستثنى من هذا العموم شيء واحد فقط، هو الغريزة الجنسية في كل من الرجل والمرأة، فهي على الرغم من كونها تدفع إلى ارتكاب محظور يعد في ذروة المحظورات الشرعية - ما لم ينضبط بحدود وقيود معينة - تعتبر من أخص مستلزمات الفطرة الإنسانية وأهم متطلباتها، ولا سبيل لأي

إنسان ما دام إنسانًا طبيعيًا لا شذوذ فيه إلى أن ينفك عنها أو يسمو فوقها.

.. فالشهوة الجنسية في الإنسان أخطر ابتلاء ديني في حياته.

إذ في الوقت الذي تقف الفطرة الإنسانية فيه عونًا على تطبيق حكم الله بالنسبة للمعاصي والمنكرات، فإنها تقف بالنسبة للشهوة الجنسية مثيرة لها أو عاجزة - في أحسن الأحوال - عن أن تكبح لجامها أو تقلل شيئًا من هياجها.

.. ومن هنا كان أخطر الوظائف الإسلامية التي كلف الله بها المرأة، أن تغمد سلاح فتنتها أمام الرجال ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً..} ([٤٣]).

وفي كتابه: «إلى كل فتاة تؤمن بالله» يقول فضيلة الشيخ محمد سعيد البوطي:

- «يقولون لكِ: إن عفة الفتاة حقيقة كامنة في ذاتها، وليست غطاء يلقى ويسدل على جسمها، وكم من فتاة محتجبة عن الرجال في ظاهرها، وهي تمارس معهم البغي والفجور في سلوكها، وكم من فتاة حاسرة الرأس سافرة الوجه لا يعرف السوء سبيلًا إلى نفسها أو سلوكها.

([٤٣]) ففروا إلى الله، أبو ذر القلمونى، ص: ٥٧، ٥٨ بتصرف.

وأقول لك:

إن هذا صحيح. فما كان للثياب أن تنسج لصاحبها عفة مفقودة، ولا أن تخلق له استقامة معدومة، ورُبَّ فاجرة سترت فجورها بمظهر سترها. ولكن مَن هذا الذي زعم أن الله شرع الحجاب لجسم المرأة ليخلق الطهارة في نفسها أو العفة في أخلاقها؟

ومَن هذا الذي زعم أن الحجاب إنما شرعه الله ليكون إعلانًا بأن كل مَن لم تلتزمه فهي فاجرة تنحط في وادي الغواية مع الرجال؟

إن الله - جل جلاله - فرض الحجاب على المرأة محافظة على عفة الرجال الذين تقع أبصارهم عليها، لا حفاظًا على عفتها من الأعين التي تراها!... ولئن كانت تشترك معهم هي الأخرى في هذه الفائدة في كثير من الأحيان، فإن فائدتهم من ذلك أعظم وأخطر.

وإلا فهل يقول عاقل - تحت سلطان هذه الحجة المقلوبة - إن للفتاة أن تبرز عارية أمام الرجال كلهم ما دامت ليست في شك من قوة أخلاقها وصدق استقامتها؟!

.. ولا يغني عن الأمر شيئًا أن تعتصم المرأة المتبرجة باستقامة في سلوكها أو عفة في نفسها. فإن ضرام ذلك البلاء الهائج في

نفوس الرجال، ما قد يتغلب على كل استقامة أو عفة تتمتع بها المرأة إذ تعرض من فنون إثارتها وفتنتها أمامهم.

- ويقولون لكِ:

إنه إذا شاع الاختلاط بين الرجل والمرأة، تهذبت طباع كل منهما، وقامت بينهما بسبب ذلك صداقات بريئة لا تتجه إلى جنس ولا تنحرف نحو سوء! أما إذا ضرب بينهما بسور من الاحتجاب، فإن نوازع الجنس تلتهب بينهما وتغرى كلاً منهما بصاحبه فيشيع من ذلك الكبت في النفوس والسوء في الطباع.

وأقول لكِ:

صحيح، إن مظاهر الإغراء قد تفقد بعض تأثيراتها بسبب طول الاعتياد وكثرة الشيوع. ولكنها إنما تفقد ذلك عند أولئك الذين خاضوا غمارها وجنوا من ثمارها، خلال مرحلة طويلة من الزمن، فعادوا بعد ذلك وهم لا يحفلون بها.

وبديهي أن ذلك ليس لأنهم قد تساموا فوقها، ولكن لأنهم قد بشموا (٤٤) بها، ولأنهم يشبعون منها كل يوم.

(٤٤) البَشَم: التُخْمَة، يقال: بَشِمَ من الطعام: سئم منه.

لذلك...

نسبة الذين يقبلون على الزواج من الشبان المتدينين تزيد على ضعف نسبة مَن يقبلون عليه من المتحللين أو المتحررين. والمتدينون لا يتزوجون إلا في الحجر الصالح، ولا يتعلقون إلا بجمال زانه خلق وستر ودين...

.. وإذا كنتِ لا تملكين من الطاقة والإرادة أو الظروف المساعدة ما تفرضين به على نفسك حجابًا سابغًا للجسم والوجه، فلتفرضي على نفسكِ ما دون ذلك مما تساعدك عليه الظروف والأحوال، وإذا كنتِ لا تجدين طاقة كافية لتغيير أي شيء من لباسك وهيئتك، مهما كانت منحرفة وبعيدة عن الله - عز وجل - فلتفرضي على نفسك ما دون ذلك أيضًا، من أداء العبادات المفروضة، وتلاوة شيء من كتاب الله بتدبر خلال كل صباح ومساء، وإذا كنتِ عاجزة عن الارتباط حتى بهذا القدر في سبيل الإصلاح فلتفرضي على نفسكِ ما دون ذلك، من استشعار خطورة الحال التي أنتِ فيها والالتجاء إلى الله ينبوع النصر والتوفيق.

وما سار إنسان إلى الحق بادئاً بخطوة من هذه الخُطى متجهًا إلى الله بصدق وعزم، إلا وفقه الله تعالى في السير إلى نهاية الطريق والوصول إلى مجامع ذلك الحق.» ([٤٥]).

([٤٥]) **ففروا إلى الله، أبو ذر القلمونى، ص: ٥٩، ٦٠، ٦٤، ٦٦، بتصرف.**

عندما لا يكون في القلب مكان لمحبوب آخر

المحبوب يغار على حبيبه...

ولا يقبل أن يُنازَع فيه..

«فالمحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب، وألا يشرك بينه وبين غيره في محبته، وإذا كان المحبوب من الخلق يأنف ويغار أن يشرك معه محبة غيره في محبته، ويمقته لذلك، ويبعده لا يحظيه بقربه، ويعده كاذبًا في دعوى محبته، مع أنه ليس أهلاً لصرف كل قوة الحب إليه، فكيف بالحبيب الأعلى الذي لا تنبغي المحبة إلا له وحده، وكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها ووبال.

ومَن أعرض عن محبة الله وذكره والشوق إلى لقائه ابتلاه بمحبة غيره، فيعذبه بها في الدنيا وفي البرزخ، وفي الآخرة: فإما أن يعذبه بمحبة الأوثان، أو بمحبة الصلبان، أو المردان، أو بمحبة النسوان، أو محبة العشراء والإخوان أو محبة ما دون ذلك مما هو في غاية الحقارة والهوان. فالإنسان عبد محبوبه كائنًا مَن كان.

أنت القتيل بكل مَن أحببته فاختر

لنفسك في الهوى مَن تصطفي

فمن لم يكن إلهه مالكه ومولاه كان إلهه هواه، قال تعالى:

« أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ. (الجاثية: ٢٣) ».

والحب خضوع للمحبوب وتذلل له، وهذه حقيقة التعبد، «فمن أحب محبوبًا وخضع له فقد تعبد قلبه له، بل التعبد أحد مراتب الحب، ويقال له التتيم أيضًا. فإن أول مراتبه: العلاقة، وسميت علاقة لتعلق المحب بالمحبوب.

قال الشاعر:

تَعَلَّقتُ لَيلى وَهيَ غِرٌّ صَغيرَةٌ

وَلَم يَبدُ لِلأَترابِ مِن ثَديِها حَجم

ثم بعدها الصبابة: وسميت بذلك لانصباب القلب إلى المحبوب.

ثم الغرام: وهو لزوم الحب للقلب لزومًا لا ينفك عنه، ومنه سُمِّيَ الغريم غريمًا لملازمته صاحبه.

ثم العشق: وهو إفراط المحبة، ولهذا لا يوصف به الرب تبارك وتعالى ولا يطلق في حقه.

ثم الشوق: وهو سفر القلب إلى المحبوب أحث السفر.

ثم التتيم: وهو آخر مراتب الحب، وهو تعبد المحب لمحبوبه، يقال: تيمه الحب إذا عبده ومنه تيم الله، أي عبد الله، وطريق مُعَبَّد أي مُذلَّل قد ذلَّلته الأقدام، فالعبد الذي ذلَّله الحب، والخضوع لمحبوبه، ولهذا كانت أشرف أحوال العبد ومقاماته هي العبودية، فلا منزلة له أشرف منها.

وقد ذكر الله سبحانه أكرم الخلق عليه وأحبهم إليه، وهو رسوله محمد – صلى الله عليه وسلم – بالعبودية في أشرف مقاماته وهي مقام الدعوة إليه، ومقام التحدي بالنبوة، ومقام الإسراء، فقال سبحانه:

« وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا »

« وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ».

« سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ».

أما كمال المحبة ونهايتها فهي الخُلّة، ففيها لا يبقى في القلب سعة لغير محبوبه، فالخليل هو الذي يوحّد حبّه لمحبوبه، وهو مرتبة لا تقبل المشاركة بوجه ما، وهذا المنصب خاص للخليلين صلوات الله وسلامه عليهما، إبراهيم ومحمد، كما قال تعالى «واتخذ الله إبراهيم خليلا»

وصح عن النبي - صلى الله عليه وسلم – أنه قال: «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً» ([٤٦]).

ولَمَّا كانت الخُلّة أعلى درجات الحُبّ، «ولَمَّا كانت الخُلّة مرتبة لا تقبل المشاركة، امتحن الله سبحانه وتعالى إبراهيم الخليل بذبح ولده لَمَّا أخذ شعبة من قلبه؛ فأراد سبحانه أن يُخْلِصَ تلك الشعبة له، ولا تكون لغيره، فامتحنه بذبح ولده، والمراد ذبحه من قلبه، لا ذبحه بالمُدْيَة، فلما أسلما لأمر الله، وقدَّم محبة الله تعالى على محبة الولد؛ خَلَصَ مقام الخُلَّة، وفُدِيَ الولد بالذبح» ([٤٧]).

(٤٦) الداء والدواء، ابن القيم، ص: ٣٥٥ – ٣٧١ بتصرف وإيجاز.
(٤٧) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزيه، ص: ٧٦.

في الطريق
إلى المحبوب الأعظم

عندما تشدّنا لوحة جميلة رسمها فنان، يجب أن يذهب الإعجاب والتقدير للفنان قبل أن نمنحه للّوحة.

وعندما تجذبنا ألوان وروائح الورود والياسمين ينبغي أن نُرجِع الإعجاب والانبهار والتقدير والتعظيم والإجلال لِمبدعها ومنشئها وبارئها ومصورها وخالقها، لا ننشغل بالصورة عن المصور، ولا يستغرقنا الإبداع عن المبدع.

وكل ما تقدم من الكتاب كان خطوات في الطريق إلى المحبوب الأعظم.

فالملاحظ في قصص الحب أن المُحِبين أعجبُوا بالصنعة وربما نسوا الصانع...

شدتهم الوردة بجمالها وغفلوا عن المبدع المصور البارئ...

حتى المتزوجين..

قد يعيش البعض ويموت وهو لا يدرك أن مَيْل الرجل الفطري للمرأة ورغبته فيها آية من آيات الخالق العظيم، لعمارة الأرض واستمرار الحياة..

«وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً»

فقد «اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يكون جميع خلقه من ذكر وأنثى، تجد ذلك في الحيوان وفي النبات وفي الظواهر الطبيعية كالكهرباء والمغناطيس، وتجده في الكرة الأرضية نفسها، فأحد قطبيها سالب والآخر موجب، وتجده في أدق دقائق الخلق وألطف وحداته وهي الذرة.

« سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ »

ومن طبيعة الأزواج في كل هذا الخلق أن تتجاذب، فالذكر والأنثى في النوع الواحد يتجاذبان حتمًا حسب ما بَنىَ الله عليه طبيعة كل منهما وحسب ما هدى إليه من فطرة، وسبحان الذي

« أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ».

فميل الرجل للمرأة وميل المرأة للرجل إذن هو جزء من قانون عام اقتضته حكمة الله سبحانه، لا سبيل إلى تجنبه أو إنكاره. وليس من المطلوب ولا هو مما يُرغَب فيه ويُسْعَى إليه أن يُخفَّف هذا الميل أو يُعمَل على إضعاف حدَّته» ([٤٨]).

([٤٨]) حصوننا مهددة من الداخل، د/ محمد محمد حسين، ص: ٦٩.

والعجيب أن آية:

«وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً».

لم تتطرق للحب؛ بل ذكرت المودة والرحمة.

فلربما غاض الحب مع انقضاء الشهوة وعدم الرغبة، والتقدم في العمر...

فتبقى المودة...

فإن كره الرجل زوجته، ولم يعد للمودة مكان...

تبقى الرحمة...

لأن كثيرًا ممن وقعوا في الحب، وغرّهم الجمال، وعاشوا قصص حب عنيفة، وتوّجوها بالزواج، ولم يكن الدافع سوى الحب فقط، كان الفشل والطلاق مصيرها...، إذ لم يكن القصد بناء بيت، وتأسيس أسرة، وإنما إشباع رغبة، وقضاء شهوة، فلما قُضِيَت الشهوة، وفترت الرغبة، هدأ الحب أو تلاشى...

حتى «الجمال الذي رآه الإنسان في المرأة يكتشف أنها لا تملكه وأنه لم يكن جمالها... لقد كان وديعة أودعت عندها ثم استردها صاحبها...» ([٤٩]).

لذلك...

«يقول النبي يوسف شاكيًا حاله إلى ربه حينما تكاثرت عليه نسوة مصر يراودنه:

« وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ » (يوسف: ٣٣).

فيقول لربه: إن لم تصرف عني إغراء هؤلاء النسوة فسوف أضعف بحكم بشريتي وأصبو إليهن وأكن من الجاهلين...

وبسمي القرآن الصبوة إلى النساء جهلًا.

وفي هذه الآية لمحة قرآنية عميقة تحتاج لوقفة تأمل...

لماذا تكون الصبوة إلى الجميلات ذوات الفتنة جهالة؟!...

وما الذي جهله ذلك الذي أغرم صبابة... وهام حباً؟!...

وما نوع الجهل المقصود؟!...

([٤٩]) لغز الموت، مصطفى محمود، ص: ٢٤

إن المغرم صبابة يمكن أن يكون من حَمَلة الدكتوراة... ويمكن أن يكون وزيرًا... ويمكن أن يكون فقيهًا... ويمكن أن يكون عالمًا. ويمكن أن يكون صوفيًا سالكًا طريق أهل الله... فسقطة الحب ليس فيها كبير... وفتنة المرأة يمكن أن يقع فيها الرجال على تنوع ثقافتهم.

إذن الجهل المقصود هنا ليس هو الجهل المتعارف عليه... ليس هو الجهل بالحساب والكيمياء والجغرافيا... وليس هو الجهل بالفلسفة والفقه وعلوم الكلام... وليس هو حتى الجهل بالشريعة... لأن النبي يوسف لو أنه سقط لما كان سقط عن جهل بالنصوص والوصايا... إنما الجهل المقصود هنا أعمق... هو جهل بروح الأمر... وسره وخفاياه... جهل بروح الشريعة وحكمتها ومقصدها الباطن

فما هو روح الأمر؟!

ولماذا جهل المُغرم صبابة روح الأمر حينما نظر إلى وجه حبيبته فتعلق به؟ وافتتن وَهَامَ وارتبط بكل همته وعزمه... وجعل من ذلك الحُسن والجمال شغله الشاغل بالليل والنهار!!...

إنه جهل تمامًا - وبلا شك - لأنه قد فاتته لغة الله التي كلمه من خلال وجه حبيبته الجميل!!...

فالله يقول له من خلال هذا الوجه أنا الظاهر والباطن وأنا الأول والآخر.

أنا الجمال الظاهر الذي فتنك فلا تنسبه لغيري..

وأنا الحُسن والبهاء الذي بهرك فلا تنسبه لحبيبتك وتنساني...

فغدًا وبعد سنوات لو نظرت إلى هذه الحبيبة عينها فلن ترى فيها إلا وجها مغضنا، وخدا هضيما وجلدا مجعدا، وبالموت سوف تغدو رِمَّة، فجمالها ليس جمالها وإنما هو جمالي، وحسنها ليس حسنها وإنما هو حسني، أنا أعطيته إياها على سبيل الإعارة والإنعام؛ لأنعم عليها وعليك، وأجمل حياتها وحياتك، فكيف تنساني وتعطي نفسك كلية لها وتعطني ظهرك وتجتمع عليها بكل قوتك وتتفرق عني؟!...

تلك يا عبدي قطيعة بأصل النعم، وإغفال لليد الحقيقية التي أنعمت وأعطت!!

ولأن هذه الصبابة قطعت صاحبها عن الله وحجبته عن نور ربه، فقد سمَّاها الصوفي أبو حامد الغزالي سقوطًا... واعتبر الغرق في حب امرأة واحدة إشراكًا بالله.. فلا يصح التوحيد في الحب إلا لله وحده، ولا يُعشَق وحده ولا على وجه الإفراد الكامل إلا الله...» (٥٠).

(٥٠) مكتبة د/ مصطفى محمود (رحمه الله)/ من كتاب :عصر القرود

لذلك...

«من دلائل عظمة القرآن وإعجازه أنه حينما ذكر الزواج، لم يذكر الحب وإنما ذكر المودة والرحمة والسكن سكن النفوس بعضها إلى بعض، وراحة النفوس بعضها إلى بعض وقيام الرحمة وليس الحب والمودة وليس الشهوة قال تعالى:

«وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً» (الروم : ٢١)

إنها الرحمة والمودة... مفتاح البيوت والرحمة تحتوي على الحب بالضرورة والحب لا يشتمل على الرحمة؛ بل يكاد بالشهوة أن ينقلب عدوانًا. والرحمة أعمق من الحب وأصفى وأطهر، والرحمة عاطفة إنسانية راقية مركبة، ففيها الحب، وفيها التضحية، وفيها إنكار الذات، وفيها التسامح، وفيها العطف، وفيها العفو، وفيها الكرم وكلنا قادرون على الحب بحكم الجبلة البشرية وقليل منا هم القادرون على الرحمة»([٥١]).

«ووَصَفَ القرآن العلاقة السَوية بين الرجل والمرأة بأنها المودة والرحمة، ولم يُسَمِّها حُبًّا، وجعل الحب وقفًا على علاقة الإنسان بالله؛ لأنه وحده جامع الكمالات الجدير بالحب

([٥١]) من كتاب / عصر القرود مصطفى محمود.

والتحميد، وجاءت لفظة الحب في القرآن عن حب الله وحب الرسول، وجاءت مرة واحدة عن حب المرأة على لسان النسوة الخاطئات حينما تكلمن عن امرأة العزيز وفتاها الذي (شَغَفَهَا حُبًّا)» وهو حب رفضه يوسف واستعصم منه واستعان بربه وآثر عليه السجن عدة سنين» ([٥٢]).

وقد يكون هناك ملايين الأزواج لا يحسون بالسعادة مع أزواجهم...

لماذا؟

الجواب نجده في الآية:

«وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» [الروم: ٢١].

فقد لخصه الله لنا بكلمتين:

«مَوَدَّةً وَرَحْمَة»

فطالما بقيت المودة والتعاطف والتراحم بين الزوجين كانت الحياة سعيدة وهادئة، وبمجرد غاب هذين «المؤشرين» عن

([٥٢]) مصطفى محمود، الروح والجسد.

المنزل اختفت السعادة وانقلبت الحياة إلى جحيم لا يُطاق.([٥٣]).

ولم يقتصر الحث على الاحتفاظ بالعلاقة بين الزوجين هادئة مستقرة عند هذا الحد؛ بل جاء الأمر حين لا تتوفر المودة والرحمة:

«وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ»

ليس هذا فقط:

«فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا»

(٥٣) عالج نفسك بالقرآن، عبد الدائم كحيل، ص: ٥٢١ بتصرف.

الحُبُّ سر التفوق...

هل تصلي لأنك تخاف الله؟

أم تصلي لأنك تحبه؟

جميل أن تخافه...

والأجمل أن تحبه...

لأنك إن خفته أديت..

وإن أحببته أبدعت...

إلا أن رجال الدين لم يفلحوا في تكوين جيل من المؤمنين ذوي العواطف الحارة والمشاعر المشبوبة، التي تتصل بالله عن حب ورغبة وإعجاب، فقد كان جهدهم موجهًا إلى تخويف الناس من مبدع السماء، وإفهامهم أن الوصف الأول لله – عز وجل - أنه جبار السماوات والأرض، مرسل الأقضية القاسية، والأحكام المعنتة، والأحوال التي لا تُعرَف حكمتها، ولا تُفقَه علتها.

وتعريف الناس بربهم على هذا النحو لا يكوّن عقيدة ناجحة، ولا يؤسس أعمالاً مثمرة، والأولى أن تربط قلوب الناس بالله عن طريق الحب لذاته، والإعجاب بمجده، والإحساس

بصنيعه، والاعتراف بمآثره. وقد كان الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - موصول الفؤاد بالله على هذا الأسلوب.

إذا جاءت بواكير المطر في الشتاء تعرض لها بجسمه وثوبه، وهو يقول:

«هَذَا مَطَرٌ حَديثُ عَهْدٍ برَبِّهِ».

وهي كلمة تنضح بما في قلب صاحبها من شوق لربه وحبيبه.

وإذا طلعَت بواكير الفاكهة قبَّلها، لأنها قريبة عهد بمَن أبرزها بديعة الألوان والطعوم وسط حمأ مسنون.

وعلى هذا الغرار كان الرسول الكريم يربي أصحابه، ويغرس في قلوبهم بذرة الحُب المكين لِرَبهم ولدينه العظيم، فأتى هذا الحب ثماره اليانعة، إقبالاً على الخير، وعزوفًا عن الشر، وحماية للحق، وصبرًا على المكاره، ورغبة في التضحية، ورصانة عند انهمار النعم في السراء، وعند إدبارها في الضراء»([٥٤]).

([٥٤]) تأملات في الدين والحياة، محمد الغزالي، ص: ١٠٧

وتتعدد مظاهر حب الرسول الكريم لأهله وبلده، فنجده يقول عن السيدة خديجة: «إني رُزِقتُ حبها»، ولَمَّا سُئل - صلى الله عليه وسلم -: مَن أحبّ الناس إليك، قال: عائشة.

ويقول عن مكة: «لولا أنِّي أُخرِجتُ منكِ ما خرجتُ»، حتى الجبل يقول عنه:

«هذا أُحُدٌ، وَهو جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ».

وكان يقول لمعاذ: «واللهِ إني لأحبُّك».

لذلك «كان أصحابه - صلى الله عليه وسلم - من أعمق الناس حبًا له، لأنه أهل لكل حب، وكان هو - صلى الله عليه وسلم - في محبته للمؤمنين برّاً ودودًا تنبثق من فؤاده النبيل عواطف جياشة لا ينضب معينها، ولا يتعكر صفوها. اتسعت للسابقين واللاحقين من أمته، مَن رآهم ومن لم يرهم.

سمعه أصحابه يقول:

«وددتُ أنِّي لقيتُ إخواني: فقالَ أصحابُ النَّبيِّ - صلَّى اللَّهُ عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ - أوليسَ نحنُ إخوانَكَ قالَ: بل أنتُم أصحابي ولكنْ إخواني الَّذينَ آمَنوا بي ولم يرَوني».

فأي حب هذا الذي يمتد مع العصور المستقبلة ليرتبط بقلوب بنيها في ضمير الغيب.

أما أعداؤه:

فحسبك من نقاء صدره أن ابن أبيّ الذي طعن الرسول – صلى الله عليه وسلم – في شرفه وافترى الإفك على أهله... كفّن يوم مات في قميص الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يرفض الاستغفار له...» (٥٥).

***

وقد نتعجب من حرص البعض على القيام في ساعة متأخرة من الليل... والنوم لذيذ...

والحقيقة ما أيقظهم إلا الألذ منها..

لقاء حبيب..

بعيد عن الأعين..

سمر.. ومناجاة.. وخلوة.. وطيب لقاء..

يقول ابن القيم في روابط المحبين:

«أقَرُّ شيء لِعيون المُحِبّ خلوته في سره مع محبوبه» (٥٦).

(٥٥) تأملات في الدين والحياة، ص: ٧٢ .

(٥٦) كيف تتلذذ بالصلاة، مشاري الخراز.

علامات الحُب

هل للحب علامات؟!

الجواب:

«إذا كنتَ تكثر من ذِكره، وتأنس بقربه، وتستوحش مما سواه، وتحب الخلوة به، ومناجاته، تسارع في طاعته، وتعمل دومًا على رضاه، تغار على محارمه، وتغضب من أجله، تفرح بعطاياه وتشكره دومًا عليها، تضحي بالغالي والرخيص من أجله، ترضى بكل ما يقضيه لك، وتبذل غاية جهدك في خدمته، وتشتاق يومًا إلى رؤيته»([٥٧]).

إذا كنتَ تمتلك هذه الصفات، فأنت مُحب.

وهل هناك علامة على أنه يحبك؟

الجواب:

إذا كنتَ تتقرب إليه بالنوافل فهو يحبك!:

«دلَّ على ذلك قوله جل جلاله في الحديث القدسي الذي يرويه رسول الله عن ربه، لا يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوافِلِ

([٥٧]) كيف نحب الله، مجدي الهلالي، ص: ٣، بتصرف.

حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها»

ولعلك تسأل:

أن الحامل على أداء الفرائض كثيرًا ما يكون الخوف من العقاب المترتب على تركها. أما الحامل على فعل النوافل والاستزادة منها، فما ينبغي أن يكون الخوف من العقاب، إذ أن ترك النوافل لا يستلزم العقاب، وإنما التقرب بها إلى الله، ونيل المزيد من حبه، فكان له من قصده ما أراد.

فما المانع إذن من أن يعلم المُستزيد من النوافل، يتقرب بها إلى الله، أنه سبحانه وتعالى يحبه؟ بل ما المانع من أن يُزهي وينتشي بما يعلمه من هذا الحب؟» ([٥٨]).

والطريق إلى المحبوب الأعظم مُضيء مُعبَّد آمن...

فحتى تلتقي به...

لا تحتاج إلى إذن مسبق...، أو سابق ميعاد...

لن يعترضك أحد في الدخول...

كعادة الملوك...

([٥٨]) الحب في القرآن، محمد سعيد رمضان البوطي، ص: ٣٠، ٣١ .

لقاؤك معه يبدأ بمجرد أن تقول:

«الله أكبر»

في أي مكان...

وفي أي زمان...

تدخل في حضرته...

وتعرض عليه مظلمتك...

وطلبك...

ورجاءك...

تبثه همومك...

وأوجاعك...

تناجيه...

وتسِرُّ إليه...

يفرح بك...

ولن يمل حتى تمل...

يسعده عودتك إليه وحيدًا، بعد أن استنفذت كل وسائل العون والحول من غيره...

وهو يريدك وحدك...

بلا وساطة معك...

يريدك حنيفًا مسلمًا...

«ألا يكفيك دليلًا على حب ربك لك أن جعل بابه مفتوحًا أمامك ليل نهار، وبدون حاجب ولا واسطة، فمتى شئت، ومتى رغبت في الدخول عليه دخلت!

ألم يكن من الممكن أن يكون الدخول على الله ودعاؤه في وقت محدد بالليل أو بالنهار، وعلى مَن يريد أن يجاب طلبه أن يجتهد في تحرى هذا الوقت كما يحدث مع كل صاحب سلطان؟

ولكنه - سبحانه وتعالى - لم يشأ أن يفعل ذلك، فلم يغلق بابه أبدًا في وجه أحد مهما كان جُرْمه.

نعم مهما كان جُرْمه.

وليس ذلك للمسلمين فحسب، بل لجميع عباده من يهود ونصارى وملحدين وبوذيين، ومن منافقين، وفاجرين، وقطاع طرق، ومجرمين.

أليس كل واحد من هؤلاء له مكان في الجنة يريد الله أن يشغله، ولا يتركه؟!

فإذا كنتَ تشك في هذه الحقيقة فتأمل معي توجيهه لرسوله الكريم:

«قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ».

«الأنفال: ٣٨».

هكذا بكل بساطة.

وتأمل خطابه للمنافقين، فبعد أن حذرهم وخوّفهم من مآل أفعالهم عاد فلم ييأسهم من رحمته بل جعل الطريق أمامهم ممهدًا للتوبة والعودة إليه.

« إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا » « النساء: ١٤٥ ، ١٤٦ »

وبعد ذلك يأتي التأكيد على أن الله - عز وجل - لا يريد أن يعذب أحدًا من خلقه:

«مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا» « النساء: ١٤٧ »

والذين يروعون الآمنين ويقطعون الطريق حدد الشرع جزاءهم:

«إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ». «المائدة: ٣٣».

ولكن لو تاب هؤلاء اللصوص القَتَلة لتاب الله عليهم كما جاء في الآية التي تليها:

«إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ» « المائدة: ٣٤ ».

.. فمهما فعلت بابه مفتوح لك..

أتدرى لماذا؟

لأنه يريد أن يتوب عليك:

« وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ » « النساء: ٢٧ »

ولماذا يريد أن يتوب عليك؟

ليدخلك الجنة، دار أبيك، والتي فيها جزء مخصص لك:

« وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦ » « البقرة: ٢٢١»

«في الحقيقة التي لا مرية فيها أن الله - عز وجل - يحب عباده جميعًا ويريد لهم الخير، فإن اختص أحدًا منهم بشيء، فهو سبحانه يريد من وراء ذلك أن يشكره عليها، وأن ينفع عباده به كما جاء في الحديث «إنَّ للهِ عندَ أقوامٍ نعمًا أقرَّهَا عندَهُم؛ ما كانوا في حَوائجِ المسلمينَ ما لَم يَمَلُّوهُم، فإذا مَلُّوهُم نقلَها إلى غيرِهِم»(٥٩) (٦٠).

ومع أن مضاد يحب يكره...

إلا أن من جمال القرآن ولطف أسلوبه عند التعبير عن الكراهية لم يذكر لفظ «يكره»..

بل قال:

إن الله لا يحب..

«إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ»

«إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ»

والآية الوحيدة التي نُسِبَ فيها «يكره» إلى الله - عز وجل - كانت للفعل لا للفاعل «الإنسان»

(٥٩) صحيح الجامع الصغير.
(٦٠) كيف نحب الله، مجدى الهلالي، ص: ٤٦، ٧٨ .

«وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ» [التوبة: ٤٦]

انبعاثهم: أي خروجهم معكم.

ومعنى هذا أن الله لا يكره أحدًا من خلقه ولو كان عاصيًا..

الكراهية للفعل... للمعصية.

يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي:

«والله الذي لا إله إلا هو إن الله يحبنا..

يحبنا..

إذ أكرمنا بنعمة الوقوف بين يديه..

أحبنا..

لأنه يكرمنا بالسجود له..

فإذا عرفت أن الله يحبك..

ألا تبادله يا أخي حباً بحب..

لابد أن يتفجر حب الله بين جوانحنا..

فإذا هيمنت محبة الله - عز وجل - على قلبك طردت هذه المحبة ظلمات الأغيار..

« نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ »

(انتهى كلام الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي).

***

ومتى عرف الإنسان المحبوب الأعظم، لا يتركه، وكيف يترك مَن منحه نعمة الإيجاد والإمداد؟ ومَن وعده حياة أخرى أفضل إن هو سار كما أراد؟ «من المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم، فأخبر تعالى أن مَن قُتِل في سبيله (قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه الظاهر، لا لغير ذلك من الأغراض) فإنه لم تفته الحياة المحبوبة؛ بل حصل له حياة أعظم، وأكمل مما تظنون وتحسبون» ([٦١]).

([٦١]) تفسير القرآن تدبر وعمل

كيف خرج
مصطفى محمود من الحب

يبدو أن رياح الحب الساخنة لابد أن تلفح الجميع، لن ينجو منها ساكن صحراء ولا قاطن قصر، ولن يزوغ عنها فلاح على ضفاف نهر ولا صياد في قلب بحر، لا تترك عالِمًا أو متعلما، أليس بين جوانحهم قلوب تدق؟ ها هو الدكتور مصطفى محمود يحكي تجربته مع الحب في حوار مع الكاتب محمود فوزي.

«• محمود فوزي: دكتور مصطفى محمود... لماذا قتلتَ الحب في أعماقك؟؟

•• د. مصطفى محمود: أنا لم أقتله، هو لا يعيش!... أنا لم أقتله فهو قصير العمر! أنا لا أقتله، وأنت لا تقتله؛ ولكنه قصير العمر! فالحب الوحيد الباقي الطويل العمر هو علاقتك بالله سبحانه وتعالى خاصة إذا ما ترجمت هذه العلاقة إلى أفعال تحس؛ ولذلك فإن حبك للناس يمكن أن يكون في الله أيضاً...

والآن من الصعب أن تجد الحب النادر مثل الذي كان بين النبي - صلى الله عليه وسلم - والسيدة خديجة - رضي لله عنها - التي أعطته نفسها ومالها وعمرها بكل سعادة.. وهذه نماذج نادرة..

أو تجد مدام كوري... وقد عاشا في حب وتفانٍ إلى أن أصابهما السرطان بسبب الردايوم.

في بعض الأحيان بل نادرًا أن يجد الإنسان شخصًا يفنى معه في الهدف أيا كان..

• محمود فوزي: وهل تجد مَن يفنى معك الآن؟؟ هل تعي قصة حب الآن؟!

•• د. مصطفى محمود: الآن ليس هناك قصة حب ولو أن الحوار لا ينتهي بيني وبين الجنس الآخر أبدًا؛ ولكن الحب بالمعنى المعروف لا أعيشه الآن، فعلاقتي بالله هي الأبقى..

فأنا تلقيت دروسًا طويلة وعميقة، وعرفت حدود هذا الحب، ثم إن مشكلة المرأة أنها تستنزف منك شيئًا غاليًا جدًا، هذا الشيء اسمه «الاهتمام» أو يسمونه «الهمة»، التي هي أغلى ما يملك الإنسان؛ لأنه الطاقة النفسية البحتة، وحين تحب وتنشغل وتسهر... هذا الانشغال هو نقص الهمة، لأن هِمَّتك تصبح حينئذ في المحبوب يضيع منا أغلى ما نملك،

وأنا مش فاضي يا عم محمود يضيع مني وقت تاني!

• محمود فوزي: ولا حتى تتوقع أن تجد هذه الإنسانة قريبًا؟

•• د. مصطفى محمود: أنا لا أفكر نهائيًا.. أنا عارف نوع حياتي، فمن الصعب فيها الشركة، فالحياة أصبحت نوعًا من فناء في الهدف وهذا صعب فيه الشركة، وأنا لا أريد أن أعذب روحي؛ ولهذا فلقد عملت مصدَّات لقلبي عن رياح هذا الحب.

• محمود فوزي: قلت ذات يوم أن الحب خداع ألوان.. هل مذهبك في الحياة أن تقاوم ما تحب؟

•• د. مصطفى محمود: نعم مذهبي أن أقاوم ما أحب وأتحمل ما أكره...

باعتبار أن الحب الحقيقي الباقي هو حب الله سبحانه وتعالى؛ أما الحب والهوى فهو خداع ألوان، ٩٩٪ منه خداع ألوان، والذي جرب يعرف ذلك جيدًا.. يسهر وينشغل أكثر مَن حبَّ بدأ عظيمًا عنيفًا ثم هدأ وتحول إلى عداوة.

• محمود فوزي: هل من الصعب على الكاتب المستغرق بكيانه في عمله (حتى العيادة) أن يعيش مع زوجته تحت سقف واحد؟

•• د. مصطفى محمود: من الممكن جدًا أن تلتقي الأهداف مثلما حدث لمدام كوري ومثلما حدث أيضاً - وهذا هو المثال الأعظم - للرسول صلى الله عليه وسلم والسيدة خديجة.. وهو نموذج فريد وسوف تجد في التاريخ نماذج ولكنها نادرة..

أذكر أنني قدمت حلقة خاصة عن القرود في برنامج «العلم والإيمان» واكتشفت أن السيدة الباحثة الأجنبية التي قدمت حلقات القرود قد تزوجت من مصور هذه الحلقات التي استغرقت «شهور وسنين» في الغابات، فقد تزوجا في النهاية؛ لأنهما اكتشفا أنه يجمعهما هدف واحد، حتى ولو كان القرود! الهدف الواحد بين الزوجين هو ما تجده في أوروبا.

• د. مصطفى محمود صدر لك كتاب مؤخرًا بعنوان «عصر القرود».. هل نحن حقيقة نعيش عصر القرود؟ وكيف؟!

•• بشكل كبير طغت المادية طغيانًا طفيفًا غريبًا على العالم، فعلى الرغم من أن باريس ولندن ونيويورك عواصم النور والحضارة؛ إلا انها تحولت إلى بلاد العلاقات الجنسية المنحلة والشذوذ والمخدرات والهيروين، وأصبح هو عالم «الهلس والفجور» فالرجل متزوج وله أكثر من عشيقة وزوجته لها أكثر من عشيق. فلقد سيطر الإحساس باللذة والمتعة على حياة الناس وأصبحت حياتهم نوعًا من الأخلاق القرود وتحولت حياتهم من الرقي والسمو إلى الانحلال والفجور» ([٦٢]).

([٦٢]) الحلقة السادسة عشر لـ د. مصطفى محمود في حواره مع .. محمود فوزي، من كتاب / اعترافات مصطفى محمود .

كيف يأتي الحُب؟

والجواب..

عندما تعرف تحب..

اختيار المحبوب..

لأنك لن تحب أحدًا لا تعرفه..

لذلك.. « أشرف العلم ما كان دالًا على الله سبحانه وتعالى وموصلاً إلى معرفته وتوحيده، يقول الإمام ابن القيم «إن العبد لو عرف كل شيء ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئًا، ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ولذاتها وشهواتها ولم يظفر بمحبة الله والشوق إليه والأنس به فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين» ([٦٣]).

لذلك أيضًا..

«كلما زادت المعرفة بالله تحسنت درجة معاملة العبد له، وازداد له حبًا وإجلالا وهيبة وخشية، وفي المقابل عندما يجهل الإنسان ربه، ولا يعرف قدره فإن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى أن يعامله معاملة لا تليق بجلاله وكماله، فيخشى

([٦٣]) أخطاء يجب أن تصحح، د/ جمال عبد الهادي محمد، ص: ٢٢٠، ٢٢١

الناس أكثر مما يخشاه، ويحب نفسه وماله وعقاراته أكثر مما يحب ربه، ويجتهد في التزيُّن للآخرين دون أن يبالي بربه:

« والَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ » (البقرة: ١٦٥)

فالسبب الأول لإعراض الناس عن الله، واستهانتهم بأوامره هو جهلهم بِقَدْره سبحانه..

«وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ»

(فصلت: ٢٢، ٢٣)

- والمعرفة النافعة المؤثرة هي التي تخاطب العقل والقلب معًا، ويستقر مدلولها في قلب ومشاعر الإنسان فتُشكِّل مقامًا إيمانيًا مستقرًا في القلب يظهر أثره في سلوك العبد وأعماله:

« وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ » (الحج: ٥٤)

- والعبودية الحقة من المؤمن لله عز وجل، أن يعبده سبحانه، وتتجه مشاعره نحوه حسب الحالة التي يمر بها، فتجده يتقلب بين الخوف والرجاء والرضا والفرح والانكسار و... ([٦٤])

ومما يساعد على تقوية هذا الحب أن في الأذكار والأدعية والمناجاة التي احتواها الكتاب العزيز، أو رددها فم الرسالة الطهور، أو تزلف بما يشبهها السلف الصالحون. فيها كلها بوارق تلمع فيها العاطفة المنسابة، عاطفة المؤمن الذي يحب ربه حبًا جمًا، ويهرع إلى ساحته بدافع من الشوق والرجاء قبل أن يهرع إليه بدافع من القلق والوجل. ([٦٥]).

ولو عرفت الطريقة التي فرضت بها الصلاة لعرفت كيف تحب الله...

يقول إسلام جمال صاحب كتاب فاتتني صلاة:

معرفة بداية الأشياء ييسر فهمها، فرضت الصلاة في ليلة الإسراء والمعراج، تقريبًا بعد اثني عشر عامًا من النبوة...

([٦٤]) كيف تحب الله، مجدي الهلالي، ص: ٥، ٩ بتصرف.
([٦٥]) كيف نفهم الإسلام، محمد الغزالي، ص: ٩٠ .

ماذا يعنى ذلك؟!

يعني ذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يحدث الصحابة عن الله - عز وجل - ويتلو عليهم ما أنزل من القرآن لمدة اثنى عشر عامًا قبل أن تُفرض عليهم الصلاة!

إن الله - عز وجل - حكيم خبير، وفرض الصلاة في هذا التوقيت كان لحكمة بالغة، كان من الضروري أن يتعرف الصحابة على الله تعالى أولاً، صفاته، رحمته، قدرته، حتى يستقر حب الله تعالى في قلوبهم، فيأتي فرض الصلاة عليهم فيجد مكانًا في قلوبهم؛ بل شوقًا منهم للاتصال مع هذا الخالق العظيم الكريم الودود، هكذا كان أمر الصلاة في قلوبهم.

إذا عرف الآمر، نُفِّذَ الأمر..، عندما تعرَّف الصحابة -رضوان الله عليهم- على الله -عز وجل- أحبوه، فكانت الصلاة في ظاهرها فرض عليهم وفي جوهرها هِبة من محبوب لحبيبه للاتصال به ومناجاته..

لذلك منهم مَن كان يقيم الليل كله صلاة وصلة بالله - عز وجل - ومنهم مَن كان يصلي الضحى اثنتي عشر ركعة نافلة، وكان النبي - صل الله عليه وسلم - يصلي الليل حتى تتورم قدماه..

ولا عجب في هذا، فكم من حبيب يقضي ساعات مع محبوبه دون ملل، ولله المثل الأعلى عز وجل، فكان أمر الصلاة لهم فسحة للنفس، لأنه ليس كأي أمر، بل أمر من المحبوب.

فأول مهارة عليك تعلمها للحفاظ على الصلاة وقبل أن تصلي، هي أن تتعرف على الله - عز وجل -، فإن عرفته أحببته، وإن أحببته أطعته..

لا تجتهد لتصلى بل اجتهد لتتعرف على الله تشتاق للصلاة..

فالله - عز وجل - رحيم ودود تواب واسع حافظ، اعتقادك أن علاقتك مع الله تعالى هى علاقة أمر ونهى فقط هو اعتقاد خاطئ، واعتقادك أن حب الله ووده هو أمر مقصور على الأنبياء والشهداء والصالحين فقط هو نقص إيمان..

الله قريب، عندما وصف المذنبين الذين أسرفوا على أنفسهم نسبهم إليه ولم يتبرأ منهم، فقال عز وجل:

«قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »

فإذا كنت لا تصلى..

فلانك لا تعرف الكثير عن الله.. » ([٦٦]).

ثم إنه «ليس أغدر من إنسان يرى ويسمع بقدرة الله، ويأكل ويشرب من خير الله ومع ذلك يضن على ربه بساعات قلائل يتذكره فيها.

إننا ننفق الكثير من أوقاتنا في اللهو واللعب ونستكثر لحظات تقفنا أمام الله متعبدين» ([٦٧]).

([٦٦]) فاتتني صلاة، إسلام جمال، ١٧ – ٢٠ .

([٦٧]) مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، ص:٢٥.

كيف لا أحبه؟

أدين بالحُبِّ لِمن منحني هدية...

فكيف لا أدين بالحب لمن وهبني الحياة؟

أليس هو الذي نفخ فيَّ من روحه

« وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى » (ص: ٧٢).

«وحُب الروح الإنسانية لله - عز وجل - حب قديم قبل أن تتوازعها الأجساد، وهو الحب المنبثق من نسبة هذه الروح إلى بارئها -عز وجل-.. إنه ذلك الحب الذي أنبأ عن دلائله ومصدره قول الله -عز وجل-، منبئًا عن حوارٍ حلوٍ رائع، واجَهَ الله به الروح الإنسانية إذ كانت حقيقة كلية، لم تنفصل بعدُ عن عالمها العلوي، وإنما في طريقها إلى هذه الرحلة التي أعدها الله لها. إنه قول الله - عز وجل -:

« وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ غافلين » ([٦٨]).

([٦٨]) الحب فى القرآن، محمد سعيد رمضان البوطي، ص: ٣١ .

فكيف لا تحب الروح بارئها؟

وكيف لا تحن متشوقة إلى الجمال العلوي الخالد، لكن الغريزة الحيوانية في الإنسان تقف بها على صور الجمال الدنيوي الفاني، وتسد الطريق المتجه بالروح صعدًا إلى سدّة الجمال العلوي.

ولكن إن استطاع الإنسان أن يأخذ نفسه بالتزكية التي دعا إليها كتاب الله:

« قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا »

ويجعل منها دواءً يثابر عليه، «وملاك هذا الدواء يتمثل في الإكثار من ذكر الله ومراقبته» فإن ذلك يكون خير غذاء لتقوية الروح، وأفضل وسيلة للحد من طموحات الغرائز وأهوائها.

ومع الأيام تزداد انتعاشًا بذكر الله، وتتراجع ضراوة الغرائز، ويخمد مع الزمن أوارها، فتتغلب الروح أخيرًا في حلبة هذا الصراع، وتتحرر من أسر الغرائز الحيوانية التي كانت تحبسها عند صور الجمال الزائف وأشكاله المتنوعة.

وعندئذ تتجاوز الروح بصاحبها صور الجمال الزائف لتنتهي به إلى المَعين، إلى مَعين الجمال، إلى الجميل الأوحد وهو الله. ([٦٩]).

يقول ابن الجوزي:

« كيف لا أحب مَن وهب لي ملذات حسي وعرَّفني ملذات علمي وخلق لي إدراكًا وهداني إلى ما أدركته؟

وكيف لا أحب مَن أنا به وبقائي منه، وتدبيري بيده ورجوعي إليه وكل مستحسن محبوب هو صنعه وحسنه وزينه وعطف النفوس إليه.

ولو رأينا نقشًا عجيبًا لاستغرقنا تعظيم النقاش، وتهويل شأنه، وظريف حكمته عن حب المنقوش وهذا مما تترقى إليه الأفكار الصافية إذا خرق نظرنا الحسيات، ونفذ إلى ما وراءها فحينئذ تقع محبة الخالق ضرورة، وعلى قدر رؤية الصانع في المصنوع يقع الحب له. ([٧٠]).

([٦٩]) الحب فى القرآن، محمد سعيد رمضان البوطي، ص: ٣٩، ٤٠

([٧٠]) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ٣٢ .

وإذا كان التأمل في صورة مليحة التقاسيم جميلة الرواء طريق طبيعي لتعظيم مَن رسمها، والاعتراف بعلو فنه، والتأمل في قصر منيف الشرفات رحب الأكناف متين الدعائم طريق لإكبار بانيه والتنويه بهندسته وعبقريَته.

فلا غرو أن يكون النظر إلى الأرض والسماء وما بينهما طريقًا طبيعيًا لإكبار مَن سمك هذا السقف المحفوظ، ومهد هذا الفراش المبارك، وبث في تضاعيف الخلق من أسرار الإبداع وروائع القدرة ما ينطق إليكم بالإعجاب.

« وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ * وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »

(الذاريات: ٤٧ – ٥٠) » ([٧١]).

([٧١]) **الجانب العاطفي في الإسلام، محمد الغزالي، بتصرف.**

يقول أمير الشعراء:

فَلَم أَرَ غَيرَ حُكمِ اللَهِ حُكماً

وَلَم أَرَ دونَ بابِ اللَهِ بابا

وَمَن يَعدِل بِحُبِّ اللَهِ شَيئاً

كَحُبِّ المالِ ضَلَّ هَوىً وَخابا

«وكان شيخ الإسلام «ابن تيمية»، رضي الله عنه يقول:

«إن في الدنيا جنة، مَن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة..»

ويقول أحد العارفين:

«إنه ليَمر بالقلب أوقات، أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم إذن لفي عيش طيب..»

وقال بعضهم:

«مساكين أهل الدنيا.. خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها. سُئل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله. والأنس به.. والشوق إلي لقائه.. والإقبال عليه.. والإعراض عما سواه..»([٧٢]).

([٧٢]) قصتي مع الحياة، خالد محمد خالد، ص: ٢٤٤ .

لأن «أقَرّ شيء لِعُيون المُحب خلوته في سره مع محبوبه»([٧٣]).

وكان الإمام ابن تيمية «في عنفوان أمره يخرج إلى البرية بكري فلما يبلغ الصحراء يتنفس الصعداء ثم يتمثل قول الشاعر:

وَأَخرُجُ مِن بَينِ البُيوتِ لَعَلَّني

أُحَدِّثُ عَنكِ النَفسَ بِاللَيلِ خالِيا

هذا البيت لمجنون ليلى، قاله ابن تيمية لكن صرفه بمحبته لله. ([٧٤]).

وأنت «حين تدخل في خلوة الإيمان مفارقًا تيه الوحشة والضياع، مستقبلًا مقام الأنس بذكر الله الجليل، شِدّ ثيابك إلى أعتابه وذُق من كؤوس التعبد نورًا وسلامًا وغفرانًا، واحذر أن ينجرف بصرك فتلتفت.. فيلتفت!!

وأنّى لعبد في مقام الخشوع أن ينصرف عن مشاهدة الجمال، كل شيء يتلاشى الساعة خلفك، حتى فكرك يتألم إذا اختلف عن الضياء المتجلي للخاشعين، قلبك مفتوح الأبواب لا تخفى

([٧٣]) ابن القيم

([٧٤]) منقول.

منك خفقة قلب واحدة، فالجليل مقبلٌ عليك ناظراً إليك»([٧٥]).

وإذا كان الإنسان - بطبيعته - يبحث عن اللذة في كل أحواله، وبشتى صورها، سواء كانت لذة «جُثمانية كالأكل والشرب والجماع، أو لذة خيالية كالفخر والتعاظم على الخلق، والاستطالة عليهم، أو لذة عقلية روحية كَلَذّة المعرفة والعلم والاتصاف بصفات الكمال؛ من الكرم والجود، والعفة والشجاعة، والصبر والحلم، والمروءة وغيرها، فإن الالتذاذ بذلك أعظم اللذات، وهو لذة النفس الفاضلة العُلوية الشريفة، فإذا انضمت اللذة بذلك إلى لذة معرفة الله تعالى ومحبته، وعبادته وحده لا شريك له، والرضا به؛ عوضًا من كل شيء (ولا يُتعوَّضَ بغيره منه)

فصاحب هذه اللذة في جَنّة عاجلة نِسْبتُها إلى لذات الدنيا، كَنِسبة لذة الجنة إلى لذة الدنيا، فإنه ليس للقلب والروح ألذّ، ولا أطيب، ولا أحلى، ولا أنعم من محبة الله، والإقبال عليه، وعبادته وحده، وقرة العين به، والأنس بقربه، والشوق إلى لقائه ورؤيته» ([٧٦]).

([٧٥]) فاتنني صلاة، إسلام جمال، ص: ٢٢٢ .

([٧٦]) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزيه، ص: ٢٥٤، ٢٤٦ ، بتصرف.

ثم أليس التحاب شرطا للإيمان: «ولا تؤمنوا حتَّى تحابُّوا»؟

ولَمَّا ادعى اليهود والنصارى أنهم أحبَّاء الله:

« وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ »

قال الله لهم:

« قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ »

فالحبيب لا يعذب حبيبه.

هل يمكن أن
يسكن القلبَ أكثرُ من محبوب؟

هل يمكن أن يتنازع القلبَ أكثرُ من محبوب؟

كيف يوفق الإنسان بين رغبة الروح في الاستقامة، وميل الجسد إلى الشهوات؟

ألم يَسْمُ الإنسان بروحه أحيانًا إلى أعلى عليين، ويهبط أوقاتًا بجسده «أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ»؟

ألم يصعد أحيانًا درجات لينافس الملائكة وينزلق مرة دركات ليشارك الشياطين؟!

يقول الإمام الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي:

بين تسامي الروح والقلب إلى عالم الاستقامة والحب وآمال الانقياد الدائم لأمر الله، واتجاه الكيان البشرى مثقلاً بالغرائز إلى حيث الشهوات والأهواء.

ما الحكمة من قيام التناقض بين قوة الحب الرباني المهيمن على الفؤاد، وضعف الطاقة البشرية المهيمنة على الذات والكيان؟

الحكمة أن يرى العبد المؤمن بالله -عز وجل- من هذا التناقض مشكلة لا مفر منها إلا بالالتجاء إلى الله والاستعانة به.. يفر إلى الله من ضعفه، ويلوذ به من واقع غرائزه وضراوة شهواته، ويسأله ألا يَكِله لضعفه النفسي أو الجسدي، معترفًا بأنه ضعيف مهين، لا يملك (من دون عون الله له) حولاً ولا قوة

وهذا المصير الذي ينتهي إليه العبد فراراً من التناقض الذي وصفته لك، هو المعنيّ بكلمة « العبودية » وهي الغاية القصوى من تقلبات الإنسان في حياته الدنيا.

ومهما صلى العبد وصام، ومهما تفنن في النُسك والعبادات، لا يقرّبه شيء من ذلك إلى الله، إلا إن كان مضمّخًا بِذلّ الافتقار إليه ممزوجًا بمشاعر الانكسار بين يديه.

ولكن، من أين يأتي هذا الانكسار بين يديه؟

ومن أين يصدر الشعور به؟

إن شيئاً من ذلك لا يصدر إلا من هذا التناقض الذي قضى به الله عز وجل، بين القلب الذي جعله الله وعاءً مهيأً لأقدس معاني الحب... الحب الصاعد من فؤاد العبد إلى الرب عز وجل، وبين الكيان البشري الذي ابتلاه الله بالضعف والعجز عن أداء حقوق هذا الحب.

إذن فمظاهر الضعف التي ركّبها الله في الإنسان، ابتلاء ومحنة في الظاهر، لكنها نعمة من الله له في الحقيقة وباطن الأمر تقوده؛ بل ترقى به إلى سدّة العبودية التي بها سمت رتبة الإنسان عند الله إلى أعلى من درجة الملائكة.

وما نراه اليوم من حال الذين يدخلون الإسلام في ربوع الغرب، إنك لتعجب من تحولهم عن أقصى التَفَلّت والتحرر من الالتزامات إلى أتم وأعلى درجات الالتزام بأوامر الله وأحكامه. وأنه ليخيل إلى ذي النظرة العجلى أن اليقين العقلي الذي تحلّوا به هو الذي حقق في حياتهم هذا التحول السريع، ولكن الحقيقة ليست كذلك.

إن الذي نقلهم هذه النقلة السريعة من النقيض إلى النقيض، إنما هو غياب الحب الدنيوي والشهواني السابق الذي كان مهيمنًا على أفئدتهم، عندما أشرق في حناياها الحب الرباني الجديد، فَنَسَخَت إشراقة هذا الحب الثاني حبهم الدنيوي السابق.

لا أدلّ على ذلك من الأوراد التي يأخذ أنفسهم بها هؤلاء الوافدون إلى الإسلام في شتى ربوع الغرب. إن لهم أورادًا دائمة من ذكر الله والانضباط بمراقبته، والعكوف على قراءة كلام الله بالرجوع إلى أصله العربي أو باللجوء إلى ترجماته المتواترة.

فعلامَ يدلّ هذا الالتزام الذي يتيه عن معرفة أهميته، وعن الالتزام به كثير من المسلمين الذين ورثوا الإسلام كابرًا عن كابر في بلادنا، بل كثير من المسلمين الذين يحمّلون أنفسهم مهمة الدعوة إليه والتعريف به؟

إنه يدلّ على الحب الذي يدعوهم إلى هذا الالتزام، بل يجعلهم ينتعشون بأورادهم ويستأنسون بها، ويزدادون استيحاشًا من ماضي تقلباتهم في حمأة الأهواء والرذائل، إذ لم يكن قد أتيح لهم بعدُ الارتشاف من شهد محبة الله.

بل إني لأعلم من هؤلاء الغربيين الذين شرفهم الله بالإسلام، مَن مرّوا بابتلاءات امتحن الله صدق إيمانهم بها. ذلك الصدق الذي لا يتجلى إلا من خلال الحب الرباني الذي يتغلب، بل ربما يقضي على محبة الأغيار بكل أصنافها، زَجَّهم الابتلاء الرباني بالغُربة بعد الأنس بالأهل والأصدقاء والخلان، حرمهم من موارد مالية تعودوا عليها واعتمدوا عليها في جَنْي رغائبهم ورغد عيشهم، فصلهم من وظائفهم وحطهم عن مراكزهم المادية والمعنوية التي كانوا يتبوؤونها فلم يتبرموا بشيء من ذلك، ولم يدخل أي غاشية على مشاعر أنسهم بالله وحبهم له واعتزازهم بما يجزمون به من حبه لهم. ([٧٧]).

([٧٧]) الحب فى القرآن، محمد سعيد رمضان البوطي، ص: ٦٦ ــ ٦٨ بتصرف.

عندما يسكن القلبَ المحبوبُ
الأعظم والجميلُ الأوحد

ربما يدرك البعض بعد رحلة عُمْر أن هناك محبوبًا أعظم، وجميلاً أوحد، مثلما أدرك الدكتور مصطفى محمود والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، وها هو الدكتور ناجح إبراهيم صاحب التاريخ الحافل بالأحداث والمنعطفات ينضم إلى قائمة العارفين المحبين، إذ يقول:

« الله هو المحبوب الأعظم الذي لو أحببته بحق وصدق انفتحت على قلبك وروحك كل المحاب، فأحببت زوجتك وأسرتك وجيرانك وأصهارك وأقاربك، حتى الحجر والمدر ستحبه ويحبك، ستحب الكون كله، حتى تحب مَن يسئ إليك ويهضمك أو يبخس حقك. لن ينفتح قلبك على محبة الكون والخلق حتى تحب الله ويحبك الله، وعندما يحبك الله سيضع لك القبول في الأرض، فيحبك الناس دون سبب ظاهر ويقبلون عليك دون قرابة بينك وبينهم، ودون مصلحة يريدونها.

أشرف الأحوال في محبة الله سبحانه ألا تختار لنفسك حالة سوى ما يختاره الله لك ويقيمك فيه، فمن أحب الله بصدق

وتجرّد كان مع مراد الله منه، وليس مع مراده من الله، ودار مع شرعة الله ولم يدر مع هواه.

المحب لله يعلم أن تدبير الله لعبده خير من تدبير العبد لنفسه، وأرحم به من نفسه، وأبرّ به من نفسه، وأنه لا يتقدم بين تدبير مولاه وخالقه وحبيبه الأعظم ولا يتأخر خطوة واحدة، فيلقى نفسه بين يديه ويسلّم أمره كله إليه، وحينها يستريح من الهم والغم والنكد والندم بين الحين والآخر على ما فات والخوف مما هو آت.

المُحِبُّ لله كالنحلة يأكل طيبًا ويعطي طيبًا، وإن سقط على شيء لم يكسره أو يخدشه، فهو لا يؤذي أحدًا.

المحب لله يعيش بقلبه وجوارحه ومشاعره مع الحديث الشريف:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِى»

ويوقن أنه بالله لا بنفسه ولا بحوله وقوته ولا بفكره ومعرفته وعلمه؛ بل هو بالله الذي منحه اللسان والقلب والعين والأذن، ومنَّ عليه بالعقل وسدد له القول والفعل، وصوّب له الاختيارات، خاصة في أوقات الفتن، فلا يرى نفسه ويشهد دومًا منّة ربه وتوفيقه وإعانته فهو الذي يصلح له أقواله وأعماله ويعظّم له ثمرتها ويمنع عنه فسادها، وكل ذلك يجعل

المحب يشهد على نعمة ربه عليه ويرضى عنه وعنها، ويرى تقصيره الدائم في جنب الله ويستحي من ربه لأنه لم يوفه حقه.

المحب لله يهتم بأساس البناء وهو الإيمان أولاً ثم يكمله بالفرائض والحلال والحرام فإذا كمل البناء بيّضه وجمّله بحسن الخلق والإحسان إلى الخلائق ورحمتهم، ثم أغلق الباب بالسكوت والصمت، وركّب له مفتاحًا وهو ذكر الله، وتعاهد الدار من لصوص الهوى بالتوبة المتواصلة.

المحب لله في سفره إلى الله يُخدع أولاً بالشهوات والمناصب واللذات والمتع، فإذا رفضها خُدع ثانيًا بتقبيل يده والتوسعة له والشهرة بين الناس، فإذا رفضها ابتلى بالكرامات والكشوفات، فإن وقف عندها قطعته عن الله، وإن رفضها كان عبده الذي يدور مع مراد الله يضعه حيث يشاء.

المحب لله يعيش دومًا مع قوله تعالى:

« وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى »

فكل شيء لا يراد لله أو يتصل به فهو منقطع فاشل، وكل عمل لا يراد لأجله فهو باطل، وكل قلب لا يصل إليه فهو محروم شقي.

المحب لله يعلم أنه إذا صدق الله في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره وأعطاه أفضل مما يشتهي.

المحب لله يجد نفسه في الصلاة، ففيها القرب من مولاه وأنه ما دام في صلاة فهو يقرع الباب حتى يوشك أن يفتح له.

المحب لله لا يرضي الناس بسخط الله ولا يلوم أحدًا على ما لم يؤته ويقدره الله، ويعفو عسى الله أن يعفو عنه، ويغفر للناس رجاء أن يغفر الله له، ويصبر على البلاء رجاء أن يعقبه الله خيرًا منه، ولا يستكبر لأن الله يضع المتكبر.

المحب لله قد يعصي ربه أحيانًا ولكنه يتوب سريعًا ويبكي على خطيئته مرارًا، ويعلم أن الله قد يحبه أكثر لإقراره وتوبته وانكساره أمام مولاه الحق، وأن الانكسار بالذنب أفضل من الإدلال بالطاعة أو الغرور والعجب بها.

المحب لله لا يسأل سوى مولاه لأن سؤال العبد غير سيده ومولاه إساءة إليه.

المحب لله لا يرد السفه بمثله، ولا الحمق بمثله، لأنه يعلم أن نسل السفه والخصام مذموم يكرهه مولاه سبحانه، وكيف يكره خلق الله من يحب الله؟!

الطريق إلى الله ومحبته تتخللها دومًا الاختبارات والامتحانات والصعوبات وتحتاج إلى همة عالية؛ ففي هذا الطريق تعب (آدم)، وناح فيه (نوح)، وأُلقِي الخليل (إبراهيم) في النار، واستسلم الذبيح (إسماعيل) للذبح، وبيع (يوسف) بثمن بخس دراهم معدودة، وكانوا فيه من الزاهدين، وألقي في

السجن بضع سنين، ونُشر بالمنشار (زكريا)، وذُبح السيد الحصور (يحيى) من أجل عيون امرأة خليعة، وتحمّل الضر والمرض (أيوب) فسقط جلده وفقد أسرته، وتآمر القوم على (عيسى) ليصلبوه، وألقيت على أمه (مريم) البتول العذراء العفيفة التهم الكاذبة، وأوذي في الله محمد حتى شجوا رأسه وكسروا بعض أسنانه، صلوات الله عليهم جميعاً. (انتهى كلام الدكتور ناجح إبراهيم)

على أن القلب قد يتعلق بمحبوب آخر من زينة الدنيا كالمال والبنين والنساء.

لذلك...

يحذر القرآنُ الإنسانَ من أن يجعل حبه للآخر أيًا كان، مزاحمًا أو منافسًا لمحبة الله عز وجل.

وانظر ببصيرتك في قوله تعالى:

« قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ »

تجد في الآية تقريرًا لحقيقة واقعة قضى بها الله عز وجل؛ وهي تعلق نفوس العباد بمحبة كثير من الأغيار: النساء والبنين وأفراد العشيرة والقوم، والأموال والتجارات والمساكن إلخ...

ونجد في الآية تحذيرًا شديدًا من أن يذهب الإنسان في حبه لتلك الأغيار على اختلافها، مذهبًا تسمو به محبتها على محبة الله أو تتكافأ محبتها مع محبة الله. (٧٨).

لكن، كيف يوفّق الإنسان بين حبه الغريزي للأغيار، ومحبته لله عز وجل؟

وكيف السبيل إلى التنسيق بين ما قضى به الله تعالى من حب الإنسان للإنسان ولمشتهياته الأخرى، وبين ما أُمِرَ به الإنسان من التسامي على حب ما عدا الله؟

أن تبقى محبة الله هي المتغلبة وهي المتحكمة بحياته وسلوكه.

ألا ترى إلى هذا اللطف الرباني كيف يتجلى في قوله عز وجل:

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ »

ألا ترى إلى هذا اللطف ذاته متجلياً في قوله تعالى « قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ

(٧٨) الحب فى القرآن، محمد سعيد رمضان البوطي، ص: ٧٠، ٧١ بتصرف.

إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ »

لم يطالب الله عباده في الآيتين بأن تكون محبتهم لله وحده من دون سائر الأغيار، وإنما طلب منهم ألا تكون محبتهم للأغيار من الناس والرغائب الدنيوية الأخرى أشد من محبتهم لله تعالى.

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ »

لم يقل:

والذين آمنوا لا يحبون إلا الله، مع أن الإيمان الكامل يستلزم ذلك، ولكنه قال: والذين آمنوا أشد حباً لله، أي لهم أن يوسعوا في قلوبهم أماكن لمحبة أهوائهم ومعايشهم، ولكن على أن يكون حب الله هو المتغلب وهو الأقوى دائمًا

فكأنه يقول: كيف أطلب منكم اجتثاث حُبِّ الأهل والزوجة والأولاد وأمتعة الدنيا من قلوبكم، وأنا الذي غرست حبها في قلوبكم، ولكن الذي أطالبكم به أن تكون محبتكم للأغيار محكومة بمحبتكم لي، ومن ثم خاضعة لأحكامي وشرائعي»([٧٩]).

([٧٩]) **الحب فى القرآن، محمد سعيد رمضان البوطي، ص: ٧٦، ٩٦ بتصرف.**

كيف ينمو الحب

هل هناك من وسائل تعين على الحب، أو تحفظه، وتنميه؟!

رحم الله الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي، وقد بيَّن لنا سُبُل تنمية حُب الإنسان لله، إذ يقول:

- السبيل الأول:

يتمثل في الإكثار من مراقبه وذكره، وخير أداة لذلك، استنهاض الفكر لربط النِعَم بالمصدر الذي جاءت منه وهو الله عز وجل.

إذا جلستَ إلى مائدة الطعام اذكر أن كل الألوان الشهية التي أمامك إن هي إلا خلاصة سماء أمطرت، وأرض أنبتت، وأنعام سخَّرها الله لك لحومًا وألبانًا. فهل غير الله سخَّر لك ذلك؟

وإذا دخلت الحمام اذكر أن الذي قضى بتصفية جسمك من سمومه القتَّالة كلما تجمعت وأصدرت إليك إشارات الخطر إنما هو الله عز وجل.

واذكر إذا وقفت أمام المغسلة بعد خروجك من الحمام أن هذه المادة العجيبة التي نسميها الماء، والتي تحققت فيها وحدها شروط الطهارة والتنظيف إنما متعك بها الله، ولو حُرِمتَها ثلاثة أيام متواليات لكرهت نفسك، ولضجرت من قذارتك...

ثم اذكر إذا خرجت عدّتك للكدح والعمل أن الذي أمدّك بالقوة ومتعك بالعافية، وحماك بما يسمونه (المناعة) من الجراثيم التي تفيض بها الأجواء التي من حولك، إنما هذا هو الإله ذاته...

ثم اذكر إذا عدت مكدودًا إلى دارك في المساء، وتمددت على فراشك تنتظر نعمة الرقاد، أن الذي يبعث في كيانك هذه النعمة العجيبة إنما هو الله، ولو حُرِمت منها يومين لتشنجت منك الأعصاب ولضجر الفكر، واختلط منك الوعي، وصرت على حافة الجنون...

فإذا استيقظت بعد أن أخذ الجسم غذاءه الكافي من نعمة الرقاد، ورأيت أنك قد عدت إلى حيويتك ونشاطك، فاذكر أن الذي أحياك بعد ما أماتك تلك الموتة الصغرى إنما هو الله عز وجل.

-السبيل الثاني:

مجالسة الصالحين والابتعاد عن مجالس الفاسقين والمجالس التي تظهر فيها المنكرات، ويتم فيها تداول المحرمات.

وإذا تحققت محبة الإنسان لله عز وجل، فإن أجلّ ثمراتها وأقدس آثارها اتباع المحبوب، وإنما يكون ذلك بتنفيذ أوامره والانتهاء عن نواهيه، وملاك ذلك الاهتداء بكتاب الله والتمسك بسنة رسول الله. وصدق الله القائل:

«قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ » ([٨٠]).

([٨٠]) **الحب في القرآن، محمد سعيد رمضان البوطي، ص: ٥٠ ــ ٥٥ بتصرف.**

ثمار الحُب

كيف لا نحب الله، وقد كرَّمنا نحن أبناء آدم بالعقل والحرية والإرادة و.. و..؟!

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ »

كيف لا نحبه وقد جعلنا خلفاء الأرض نعمرها، ونقيم العدل فيها؟!

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً »

كيف لا نحبه إذا كان من ثمار حبه كما يقول الدكتور مجدي الهلالي:

-الرضا بالقضاء:

فالأقدار المؤلمة والبلايا ما هي إلا أدوات تذكير يُذكِّر الله بها عباده بحقيقة وجودهم في الدنيا، وأنها ليست دار مقام بل دار امتحان، وأن عليهم الرجوع إليه قبل فوات الأوان:

« وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » (الزخرف:٤٨)

-أدوات تطهير من أثر الذنوب والغفلات التي يقع فيها العبد:

« مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حَزَنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غمٍّ، حتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُها إِلاَّ كفَّر اللَّه بهَا مِنْ خطَايَاه».

-التلذذ بالعبادة وسرعة المبادرة إليها:

فالمحب يقبل على محبوبه بسعادة، ويطيع أمره برضا، لا تحركه لتلك الطاعة سياط الخوف من عقوبة عدم أدائه للعمل بل يحركه ما حرك موسى -عليه السلام- عندما قال لربه:

« وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ » (طه:٨٤)

وكذلك ما جعل رسولنا -صلى الله عليه وسلم- يقول لبلال:

« أرحنا بها يا بلال »

«فكان إذا سجد -صلى الله عليه وسلم- وأطال السجود، وسُمع وَجيبُ قبله، ونشيج تضرعه وبكائه، فذلك لأنه في غمرة شوق جارف، ومحبة آخذة..

ولهذا كان ينتظر الصلاة على شوق، فإذا جاء ميعادها قال لمؤذنه: أرحنا بها..» ([٨١]).

([٨١]) إنسانيات محمد، خالد محمد خالد، ص: ٨٩ .

هناك سعادة حقيقة ومتعة وشعور باللذة والنعيم يجدها المحب في مناجاته وذِكْرِه وخلوته بربه، وهذا ما يطلق عليه: (جنة الدنيا).

-الشوق إلى الله:

وهو ثمرة من ثمار تمكن حب الله في قلب العبد.

-التضحية من أجله والجهاد في سبيله:

لأن المحبة الصادقة لله -عز وجل- تدفع صاحبها لبذل كل ما يملكه من أجل نيل رضا محبوبه.

-الرجاء والطمع فيما عند الله:

فكلما اشتد الحب اشتد الرجاء في الله، وحسن الظن فيه ألا يلقي حبيبه في النار، فالمحب لا يعذب حبيبه.

- الحياء من الله:

فالمحب الصادق في حبه لله يستحي أن يرى حبيبه في وضع مشين، أو مكان لا يحب أن يراه فيه. وإذا ما وقع في معصية أو تقصير سارع بالاعتذار إليه واسترضائه بشتى الطرق. فتجده يهرع إلى مولاه يسترضيه ويتذلل إليه ويستغفره، ويطلب منه العفو والصفح.

-والشفقة على الخلق:

الشفقة التي يجدها المحب في قلبه تجاه الناس جميعًا، وبخاصة العصاة منهم، وهذه الثمرة من ثمار المحبة من شأنها أن تجعلنا نقوم بتعديل خطابنا الدعوى، فنستوعب الجميع ونبشرهم ونطمئنهم تجاه ربهم قبل تخويفهم وترهيبهم.

- والغيرة لله:

عندما يستبد حب الله في قلب العبد فإن هذا من شأنه أن يجعله يغار لمولاه، وعلى محارمه أن تنتهك، وحدوده أن تُتجاوز، وأوامره أن تخالَف.

فالمحب لله يجمع بين أمرين:

الشفقة على الخلق وحب الخير لهم من جانب، وبغضه لتصرفاتهم التي لا ترضى مولاه، ونهيهم عنها، بل ومحاربتهم عليها إن تطلب الأمر من جانب آخر.

- والغنى بالله:

أهم ثمرة لمحبة الله سبحانه هي الاستغناء به - عز وجل - والاكتفاء به: وينعكس ذلك على تعاملات العبد مع الأحداث التي تمر به، فإن أدلهمت الخطوب استشعر معية الله له:

« لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » (التوبة: ٤٠) » ([٨٢]).

([٨٢]) كيف نحب الله، مجدي الهلالي، ص: ٦ – ٢٣ بتصرف.

« ومن ثمرات محبة الإنسان لله تعالى الشوق إلى لقائه. إذ من المحال أن يحب الإنسان شيئًا ولا يحب لقاءه أو القرب منه، وإذا علم المُحب لله أن لقاءه رهن بموته وخروجه من الحياة الدنيا، فينبغي إذن ألا يكره الموت، بل الذي يقتضيه حقيقة حبه لله أن ينتظره ويستأنس بقربه لأنه السبيل إلى لقاء محبوبه ألا وهو الله، ومثل هذا الإنسان لابد أن يبادله الله حبًا بحب، وهذا هو معنى قول رسول الله في الحديث المتفق عليه:

« مَن أحَبَّ لقاءَ اللهِ أحَبَّ اللهُ لقاءَه ».

وربما قال بعضهم: إن الإنسان ربما كره الموت واستوحش منه، مع حبه لله عز وجل، لِما يرى من تقصيره في أداء حقوق الله، ومما يُخَيل إليه من تعاظم ذنوبه.

وأقول:

إن هذا الاحتمال إنما يطوف بذهن مَن لم يذق لذة محبة الله عز وجل، أما الذي أحب الله عز وجل حقًا، فإن شوقه إلى اللقاء يتغلب على مخاوفه مما قد ينتظره من عقوبات تقصيره، أجل، فإن الذي استبد به الشوق إلى لقاء الله، لا يبالي أن يجد في طريقه إلى ذلك أو في أعقاب ذلك كل ما قد يفترضه من الآلام.

بل إن لواعج حبه تحجبه عن التفكير في مخاوف العقاب الذي قد ينتظره. ([٨٣]).

([٨٣]) الحب فى القرآن، محمد سعيد رمضان البوطي، ص: ٥٦، ٥٧ .

المرء مع مَن يُحب

إذا كانت الطيور على أشكالها تقع...

والمرء على دين خليله...

فإن المرء أيضًا مع مَن يُحب، ومع ما يُحب. فحبك الخير، وحبك الفضائل، حتى في حالات ضعفك يجعل لك في القافلة المباركة مكانًا.

ويضرب الرسول -صلى الله عليه وسلم- لهذه الحقيقة مثلاً باهراً فيصور لنا جماعة جلسوا في مسجد يعبدون الله، ويذكرونه.

وهناك في أقصى المسجد، قعد رجل وحده، لم يأخذ مكانه بينهم عابدًا وذاكرًا، وتمر ملائكة الرحمة بهذه الجماعة العابدة، فتباركها، ثم تلقي نظرة على ذلك الجالس بعيدًا، ثم يقول بعض الملائكة لبعض فلنباركه أيضًا، فهؤلاء القوم لا يشقي جليسهم، أو حسب نصّ الحديث النبوي.

« هم القوم لا يَشْقَى جليسهم »

وفضائل الحياة كما يراها الرسول - صلى الله عليه وسلم - تتمثل في كل قيم الخير والحق والجمال، والحب.

والحب أمهات هذه الفضائل التي تشكّل روح الحياة وضميرها.

وهو يقف على رأس هذه الفضائل، ويعبد الطريق أمام كل قوى الخير فيها، وفي حضّ الرسول-صلى الله عليه وسلم- على الحب، وتوصياته بشأنه يبدأ بتطهير منابعه، وذلك بأن ينحّى عنه كل دواعي الوصولية والغرض...

أجل ليس الحب عند الرسول -صلى الله عليه وسلم- (اتفاقًا تجاريًا) بين تاجرين؛ بل (ميثاقاً) بين روحين، ولكي يأتي الحب من منابعه الطاهرة، ثم لكي يبقى وينتصر على معوقاته لابد أن يتجرّد من كل غرض زائل، ومنفعة رخيصة..

وذلك بأن يكون خالصاً صافياً متفوقاً لله رب العالمين.

إِنَّ اللهَ تَعَالى يَقُول يَوْمَ القِيَامَة:

« أَيْنَ المُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِي؟ اليَوم أُظِلُّهُم فِي ظِلِّي يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي». (رواه مسلم ومالك).

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام:

« أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ »

ويقول الله تبارك وتعالى:

«مَحبَّتي للمُتحابِّينَ فيَّ، والمُتجالِسينَ فيَّ، والمُتزاوِرينَ فيَّ، والمُتباذِلينَ فيَّ ».

ولنتصور كيف يوجب الله على نفسه هذه المثوبة الجليلة.

يوجب على نفسه حب المتحابين فيه ومن أجله، وفي هذا تكريم للحب في الله أي تكريم!

بل إن الحب في الله ليرتفع عند الرسول -صلى الله عليه وسلم- حتى يجعله شرطًا للإيمان.

والذي نفسي بيده! لا تدخلوا الجنَّةَ حتَّى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتَّى تحابُّوا.

ونحن نعلم أن الصلاة والصيام أجل أركان الإسلام، حتى لقد أخبر الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن فرق ما بين الإسلام والكفر الصلاة...

ومع هذا فإن الرسول -صلى الله عليه وسلم- يرفع إلى مستواهما. بل فوق مستواهما كل عمل من شأنه أنه يرعرع الحب ويجعل الناس بعضهم لبعض أحباباً وإخواناً ..

ها هو يقول:

«ألا أخبرُكم بأفضلِ من درجةِ الصيامِ والصلاةِ والصدقةِ؟ قالوا: بلى، قال: إصلاحُ ذاتِ البينِ»

وكما ينتشر عبير الورود والأزاهير، يريد الرسول -صلى الله عليه وسلم- للحب في الله أن يملأ الحياة عبيراً وعبقاً!!

وهو لهذا يدعو المتحابين أن يعلنوا عن حبهم. ويريد للحب العظيم أن يعلن عن نفسه. وألا يظل مخبئا تحت الجوانح...

يقول عليه الصلاة والسلام:

إذا أحبَّ الرَّجلُ أخاهُ فليُخبِرهُ أنَّهُ يحبُّهُ»«

***

إن الحب أعمق حاجات النفس البشرية، ولا شيء يجعلنا نتغلب على جفاف الحياة وقسوة الظروف مثل الحب، أن تكون محباً.. وأن تكون محبوباً...

لذا كان جزاء الحب في الله عظيمًا، ومثوبته جزيلة، وحين نطالع هذا الحديث القادم، لا يسعنا إلا أن نقول: لقد ذهب المحبون في الله بالأجر كله!!:

« إِنَّ مِن عِبَادِ الله عباداً مَا هم بِأَنْبِيَاء وَلَا شُهَدَاء يَغْبِطهُمْ الْأَنْبِيَاء وَالشُّهَدَاء يَوْم الْقِيَامَة لِمَكَانِهِمْ من الله » قَالُوا: يَا رَسُول الله خبرنَا مَا هم وَمَا أَعْمَالهم فَلَعَلَّنَا نحبهمْ فَقَالَ: «قوم تحَابوا فِي الله عَلَى غير أَرْحَام بَينهم وَلَا أَمْوَال يَتَعَاطونَهَا فو الله إِن وُجُوههم لنُور وَإِنَّهُم عَلَى مَنَابِر من نور لَا يخَافُونَ إِذا خَافَ النَّاس وَلَا يَحْزَنُونَ إِذا حزن النَّاس».

كان أحد الصالحين من أهل الله يقول:

«والله إنَّا لفي لذة، لو علمها الملوك، لقاتلونا عليها بالسيوف»!!

فما هذه اللذة التي فاقت كل لذائذ الحياة؟؟

إنها الشعور الصادق بمعية الله، شعورك بأن الله معك، وأنك مع الله، وهذا ما يصنعه بذويه الحب في الله. ([٨٤]).

([٨٤]) هكذا تحدث الرسول، ولقاء مع الرسول، خالد محمد خالد، ص: ٦٣ – ٧٣ بتصرف.

وإذا كان تناسخ الأرواح؛ وانتقال الروح من إنسان إلى آخر

بعد مفارقتها للأول بموته وانتقالها إلى الأخر بميلاده أمر لا أساس له من الصحة، إلا أنه من المعلوم أن الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائْتَلَف، وبلغ من هذا الائتلاف والتجانس والتمازج أن قال أبو نواس:

مرِضَ الحبيبُ فعُدْتُهُ

فمرِضْتُ مِن خوفي عليهِ

فأتى الحبيبُ يزورني

فبَرِئْتُ مِن نَظرِي إليهِ

لذلك.

« إذا تشاكلت النفوس، وتمازجت الأرواح وتفاعلت؛ تفاعلت عنها الأبدان، وطلبت نظير الامتزاج والجوار الذي بين الأرواح، فإن البدن آلة الروح ومَركَبُه، وبهذا ركَّب الله سبحانه شهوة الجماع بين الذكر والأنثى طلباً للامتزاج والاختلاط بين البدنين، كما هو بين الرُّوحين، ولهذا يُسمَّى جِماعاً وخِلاطاً ونكاحاً وإفضاءً؛ لأن كل واحد منهما يفضي إلى صاحبه، فيزول الفضاء بينهما.

وهذا التمازج ما عبَّر عنه ابن الرومي:

أعانقها والنفسُ بعدُ مشوقةٌ

إليها وهل بعد العناق تداني

فألثمُ فاها كي تموتَ حرارتي

فيشتد ما ألقى من الهيمان

وما كان مقدار الذي بي من الجوى

ليَشْفِيَهُ ما ترشُفُ الشَّفَتانِ

كأنَّ فؤادي ليس يَشْفي غليلَه

سوى أنْ يرى الروحَيْن يمتزجان

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رجلاً قال: يا رسول الله: عندنا يتيمة قد خطبها رجلان: مُوسرٌ ومُعْسِرٌ، وهي تهوى المُعْسِر، ونحن نهوى المُوسِرَ، فقال:

لم يُرَ للمُتحابَينِ مِثلُ التزويجِ ([٨٥])

ربما هذا ما عبَّر عنه ابن حزم الأندلسي في تعريفه للحُبِّ: «أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع» ([٨٦]).

([٨٥]) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزيه، ص: ١٢٤، ١٣٢.
([٨٦]) طوق الحمامة، ابن حزم الأندلسي، ص: ٥

أمراض القلب وعلاجها

لما كانت أمراض القلب شبهات وشهوات..

فإن القرآن شفاء للنوعين. ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل، فتزول أمراض الشُّبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية: من التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد والنبوّات، وردّ النِّحَل الباطلة، والآراء الفاسدة، مثل القرآن؛ فإنه كفيل بذلك كله، متضمن له على أتمّ الوجوه وأحسنها، وأقربها إلى العقول وأفصحها بياناً، فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشُّبه والشكوك؛ ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه، فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عياناً بقلبه، كما يرى الليل والنهار...

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ ».

وأما شفاء القرآن لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، والتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده، ويرغب عما يضره، فيصير القلب محبًّاً للرشد، مبغضاً للغي، فالقرآن مزيل للأمراض الموجهة للإرادات الفاسدة، فيصلح القلب، فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية، كما يعود البدن بصحته وصلاحه إلى الحال الطبيعي، فيصير بحيث لا يقبل إلا الحق، كما أن الطفل لا يقبل إلا اللبن.

وعاد الفتى كالطفل ليس بقابل

سوى المَحْضِ شيئاً واستراحت عواذله

(المَحْض: اللبن الخالص)

فيتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويقويه، ويؤيده ويفرحه، ويسره وينشطه، ويثبت ملكه، كما يتغذى البدن بما ينميه ويقويه، وكل من القلب والبدن محتاج إلى أن يتربَّى فينمو ويزيد، حتى يكمل ويصلح، فكما أن البدن محتاج إلى أن يزكو بالأغذية المصلحة له والحِمْية عما يضره، فلا ينمو إلا بإعطائه ما ينفعه، ومنع ما يضره، فكذلك القلب لا يزكو ولا ينمو، ولا يتم صلاحه إلا بذلك، ولا سبيل له إلى الوصول إلى ذلك إلا من القرآن، وإن وصل إلى شيء منه من غيره فهو نزر يسير، لا يحصل له به تمام المقصود...» ([٨٧]).

****

([٨٧]) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم، ص: ٤٥، ٤٦، بتصرف.

في الطريق إلى المحبوب الأكبر

في الطريق إلى المحبوب الأكبر، تقترب رحلتنا على الانتهاء...
هذا المحبوب من صفاته أنه:
لا يعاتب الذي يتوب
ولا في طبعه اللوم..

محبوب يقول لك:
أنا أقرب إليك من حبل الوريد..
إذا تَقَرَّبَتَ إليَّ ذِرَاعًا..
تَقَرَّبْتُ مِنْكَ بَاعًا..

محبوب يقول لك:
أطِعنِي...
تكون مُجَابَ الدَّعْوَةِ...
تَقُولُ للشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ...

محبوب يقول لك:

تقرَّب إليَّ أحبك...

لأنني إذا أحببتك...

« كُنْتُ سَمْعَك الَّذِي تسمَعُ بِهِ، وَبَصَرَك الَّذِي تبْصِرُ بِهِ، وَيَدَك الَّتِي تبْطِشُ بِهَا...»

محبوب يقول لك:

لو أسرفت على نفسك...

لا تقنط لو (بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنانَ السَّماءِ... غَفَرْتُ لكَ...

لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأرضِ خطَايا... لأتيْتُكَ بِقِرَابِها مَغْفِرَةً)

المحبوب الأكبر يقول لك:
إن أتيتني تمشي... أتيتك هرولة...
أرأيت بعد هذا الحب حبًا؟
حتى لو كنت مُقَصِّر مُذنِب.. يحبك

من جميل حب الله للعبد قوله تعالى:

« إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ »

فحبه -عز وجل- لم يختص بالمحسنين:

« إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ »

ولم يقتصر على المتقين:

« إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ »

بل تعدى حبه –عز وجل– ليشمل المُقَصِّرين والمُذنبين، ومَن زلت قدمه في طريق العصيان، ثم تدارك أمره فتاب وآب، ومهما هوى في أودية العصيان ثم عاد تائباً إلى الله بصدق، فإنه يدخل في عموم مَن أخبر الله بحبه لهم.

على أن حب الله لعباده لا يستلزم تفسيره بالمعنى الذي يحبه الإنسان في نفسه لدى شعوره بحب شيء ما، من الاستئناس بقربه، والاستيحاش من بُعده، بل نذهب في تفسير هذه الكلمة مذهب السلف في الجمع بين الحقيقة والتنزيه، فنقول هو يحب عباده الصالحين كما قال دون تشبيه ولا تجسيد ولا تكييف». ([٨٨]).

ولَمَّا كان الودّ من أسماء الحُبّ، أنظر إلى اقتران اسم الله (ٱلۡوَدُودُ) مع اسمه تعالى (ٱلۡغَفُورُ) في قوله: «وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ» (البروج: ١٤).

([٨٨]) الحب فى القرآن، محمد سعيد رمضان البوطي، ص: ٢٥، ٢٦ .

وفيه سرٌّ لطيف، وهو: أنه يحب عبده بعد المغفرة، فيغفر له ويحبه، فالتائب حبيب الله.

والله سبحانه وتعالى يحب المغفرة، وإن كَرِه معاصيَ عباده، ويحب السَّتْر، وإن كَرِه ما يستْر عبده عليه، ويحب العتق، وإن كَرِه السبب الذي يَعْتِقُ عليه من النار، ويحب العفو، كما في الحديث:

« اللهمَّ إنك عفوٌّ تُحبُّ العفوَ فاعفُ عنِّي »

وإن كَرِه ما يعفو عنه من الأوزار، ويحب التوابين وتوبتهم، وإن كَرِه معاصيهم التي يتوبون إليه منها.

ومن تفسير قوله تعالى: « إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَـٰنُ وُدًّا » (مريم: ٩٦)

أنه سبحانه يحبهم و يحببهم إلى عباده. ([٨٩]).

([٨٩]) روضة المحبين، ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزيه، ص: ٧٥، ٩٩ ، ٥٥٨، بتصرف.

صحيح القلب يعشق كل جميل ؟

صحيح القلب يعشق كل جميل؟!

عجيبة علاقة القلب بالجَمال...

هل كل القلوب يشدها الجَمال...

يعنى صاحب القلب الأسود الغليظ يشده الجَمال كصاحب القلب الأبيض الرقيق؟!

أليست هناك قلوب كأفئدة الطير؟!

و قلوب قاسية كالحجارة أو أشد؟!

ما أستطيع أن أقوله أن الجَمال عندما يصادف قلباً سليماً رقيقاً لا يملك صاحبه إلا أن يحب...

وقد يُبدِع...

يُبدِع في أي صورة من صور الإبداع...

قصيدة .. قصة .. لوحة.. رسالة .. تعليق .. عتاب ..

أما إن عجز عن البوح ..

يا ويل قلبه...

أما إذا التقى الحب مع العفاف..

تسمع عجباً..

تتهذب طباع الإنسان، ويَرِقُّ قلبه، ويصفو مزاجه، وتتعدل سلوكه، وتطيب أحواله، ويلين جانبه، فلا تراه جافياً، أو قاسياً، أو أنانيّاً أو غاضباً.

صحيح قد يحوّل الحب صاحبه إلى أمير أو أسير...

وقد يحلق به في جو السماء أو يبقى العُمْر مكسور الجناح، منطويًا، يتفادى النظرات، ويتحاشى اللقاءات.

إلا أنه في كل الأحوال حلو حتى في عذابه...

***

هذا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة أحب حتى اشتهر أمره، ومن شِعره:

كتمتَ الهوى حتى أضرَّ بك الكتمُ

و لَامَكَ أقوامٌ و لومُهُم ظُلمُ

ونَمَّ عليكَ الكاشحون وقبلهم

عليكَ الهوى قد نَمَّ لو نفع النَمُّ

فأصبحتَ كالنهديّ إذ مات حسرةً

على إثر هندٍ أو كمنٍ سُقي السمُّ

تجنّبتَ إتيانَ الحبيب تأثُّماً

ألا إن هجرانَ الحبيب هو الإثمُ

فَذق هَجْرَها قد كنتَ تزعمُ أنه

رشادٌ ألا يا رُبّما كذب الزعمُ

وها هو عروة بن أذَيْنة تابعي جليل وشاعر غزل وشريف مقدم من شعراء المدينة المنورة، وهو معدود في الفقهاء والمحدثين يقول:

إنَّ التي زَعَمَتْ فُؤَادَكَ مَلَّها

خُلقت هواكَ، كما خُلقتَ هوىً لها

وَبَنِيتُ بينَ جَوانِحي حُبٌّ لها

لو كانَ تحتَ فِراشِها لأَقَلَّها

بَيْضاءُ باكَرها النعيمُ فَصاغَها

بلباقَة ٍ فأَدَقَّها وأَجَلَّها

حَجَبت تحيَّتها فقلتُ لصاحبي

ما كان أكثرها لنا وأقلّها

فَدَنَا فَقال: لَعَلَّها معذورة ٌ

من أَجْلِ رِقْبَتِها فَقُلْتُ لَعَلَّها

أما عندما يسمو الحب ويرتفع، ويتخطى، ويَعْبر إلى المحبوب الأعظم، نسمع عجباً.

ها هي رابعة العدوية تُناجيه:

عرَفْتُ الهَوى مُذ عَرَفْتُ هواك

وأغْلَقْتُ قَلْبي عَلىٰ مَنْ عَاداكْ

وقُمْتُ أُناجِيكَ يا مَن تَـرىٰ

خَفايا القُلُوبِ ولَسْنا نراك

أحِبُكَ حُبَيْنِ حُبَ الهَوىٰ

وحُبْاً لأنَكَ أهْل لـذَاك

فأما الذى هُوَ حُبُ الهَوىٰ

فَشُغْلِي بذِكْرِكَ عَمَنْ سِواكْ

وامّا الذى أنْتَ أهلٌ لَهُ

فَلَسْتُ أرىٰ الكَوْنِ حَتىٰ أراكْ

فلا الحَمْدُ في ذا ولا ذاكَ لِي

ولكنْ لكَ الحَمْدُ فِي ذا وذاك

ويقول الحلاج: «يا أهل الإسلام أغيثوني. فليس يتركني ونفسي فآنس بها، وليس يأخذني من نفسي فأستريح منها. وهذا دلال لا أطيقه» ([٩٠]).

***

وعندما يلتقي الإبداع مع الالتزام، وتوجّه الموهبة في الخير ترى أدباً...

هذا ما حدث مع الشاعر العربي كعب بن زهير عندما هَجَا النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم أتاه تائباً عندما علم أن الرسول الكريم وَعَدَ بالعفو عنه.

قدَّم كعب اعتذاره في قصيدة (٦٠) بيتاً، نقطف منها قوله:

أُنْبِّئْتُ أنَّ رَسُولَ اللهَ أَوْعَدَني

والعَفْوُ عَنْدَ رَسُولَ اللهَ مَأْمُولُ

وقَدْ أَتَيْتُ رَسُولَ اللهَ مُعْتَذِّراً

والعُذْرُ عَنْدَ رَسُولَ اللهَ مَقْبولُ

([٩٠]) الله، عباس العقاد، ص: ١٣٧ .

فبلغ من إعجاب الرسول -صلى الله عليه وسلم- بالقصيدة أن خلع بُرْدَتَه الشريفة وأهداها له.

ومَن مِنَّا لم يسمع الشيخ نصر الدين طوبار وهو يشدو في المآذن عند الفجر:

جل المنادى..

ينادى..

يا عبادي..

أنا غفار الذنوب والأوزار...

مَن مِنَّا لم تمر به قصيدة أمير الشعراء في مدح الرسول -صلى الله عليه وسلم -:

وُلِدَ الهُدى فَالكائِناتُ ضِياءُ

وَفَمُ الزَمانِ تَبَسُّمٌ وَثَناءُ

يا خَيرَ مَن جاءَ الوُجودَ تَحِيَّةً

مِن مُرسَلينَ إِلى الهُدى بِكَ جاؤوا

بِكَ بَشَّرَ اللَهُ السَماءَ فَزُيِّنَت

وَتَضَوَّعَت مِسكاً بِكَ الغَبراءُ

وَبَدا مُحَيّاكَ الَّذي قَسَماتُهُ

حَقٌّ وَغُرَّتُهُ هُدىً وَحَياءُ

وَإِذا رَحِمتَ فَأَنتَ أُمٌّ أَو أَبٌ

هَذانِ في الدُنيا هُما الرُحَماءُ

وَتَمُدُّ حِلمَكَ لِلسَفيهِ مُدارِياً

حَتّى يَضيقَ بِعَرضِكَ السُفَهاءُ

أما لو اجتمع الصوت الجميل مع الكلمة الراقية واللحن العذب...
فلن تسمع إلا حالة من الطرب الأصيل ربما لم تمر على مسامعك من قبل.
وعندما يجتمع أحمد شوقي ورياض السنباطي وكوكب الشرق في مدح رسول الله، فلن تسمع من الفن الراقي أجمل من قصيدة «سلوا قلبي» التي منها:

أَبا الزَهراءِ قَد جاوَزتُ قَدري

بِمَدحِكَ بَيدَ أَنَّ لِيَ انتِسابا

مَدَحتُ المالِكينَ فَزِدتُ قَدرًا

فَحينَ مَدَحتُكَ اجتَزتُ السَّحابا

وها هو مصطفى قاسم عباس في مدح المبعوث رحمة يقول:

وكُلُّ النَّاسِ تُولَد ثمَّ تفنى
وَوحدَك أنتَ مِيلادُ الحَيَاةِ
وكُلُّ النَّاسِ تُذكَرُ ثُمَّ تُنسَى
وذِكرُكَ أنتَ باقٍ فِي الصَّلاةِ
تردِّدُهُ المآذنُ كلَّ وقتٍ
وَينبضُ بالقلوب إلى المَمَاتِ
...أَتَيتَ سناً وليلُ الكونِ داجٍ
وبعدَ الوأدِ أحيَيْتَ البَنَاتِ
وفاح المسكُ أنَّى كنتَ تمشي
ووجهكَ نورُه عَمَّ الجهاتِ
وُقد تُعلِي المَكارم قَدْرَ قَومٍ
ويعلو فِيكَ قدرُ المَكرُمَاتِ

وفى وصف مناسك الحج وحال المُحِب المُقَصِّر مع محبوبه الأعظم، فلا أروع من أن تنصت لقصيدة:

« القلب يعشق كل جميل »

«هذه الدرة الصوفية، أصبحت في صدقها وصوفيتها وروعة معانيها من أجمل ما كُتب عن الرحلة إلى الله ورسوله.

السيدة ام كلثوم هي أجمل مَن أنشدها...» ([٩١]).

القلب يعشق كل جميل

وياما شفت جمال يا عين

واللي صدق في الحب قليل

وإن دام يدوم يوم... ولا يومين

واللي هويته اليوم

دايم وصاله دوم

لا يعاتب اللي يتوب

ولا في طبعه اللوم

واحد مفيش غيره

ملا الوجود نوره

دعاني لبيته

لحد باب بيته

([٩١]) موقع الخيام.

ولما تجلالي

بالدمع ناجيته

كنت أبتعد عنه

وكان يناديني

ويقول مصيرك يوم

تخضع لي وتجيند

طاوعني... يا عبدي

طاوعني أنا وحدي

مالك حبيب غيري قبلي و لا بعدي

أنا اللي أعطيتك

من غير ما تتكلم

وأنا اللي علمتك

من غير ما تتعلم

واللي هديته إليك

لو تحسبه باديك

تشوف جمايلي عليك

من كل شيء... أعظم

سلِّم لنا تسلم

دعاني لبّيته

لِحَد باب بيته

ولما... تجلّالي

بالدمع ناجيته

مكة وفيها جبال النور

طالة علي البيت المعمور

دخلنا باب السلام

غمر قلوبنا السلام

بعفو رب غفور

فوقنا حمام الحمي

عدد نجوم السما

طاير علينا يطوف

ألوف تتابع الوف

طاير يهني الضيوف

بالعفو والمرحمة

واللي نظم سيره

واحد مفيش غيره

دعانى لبّيته

لحد باب بيته

جينا على روضة

هالّة من الجنة

فيها الأحبة تنول

كل اللى تتمنى

فيها طرب و سرور

و فيها نور على نور

وكاس محبة يدور

واللى شرب ... غنى

وملايكة الرحمن

كانت لنا ... ندمان

بالصفح والغفران

جاية تبشرنا
ياريت حباينا
ينولوا ما نلنا
يارب توعدهم
يارب واقبلنا
دعانى لبّيته
لحد باب بيته
ولما تجلالى
بالدمع ناجيته

وإذا كان الله - عز وجل - جميلاً يحب الجمال، فهو أيضاً « عليم يحب العلماء، جواد يحب الأجواد، قوي، والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف، حَييٌّ يحب أهل الحياء، وفيٌّ يحب أهل الوفاء..» ([٩٢]).

وإذا كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم – قد اختار بلالاً للأذان لأنه الأندى صوتاً، فهو أيضاً «يستحبُّ أن يكون الرسول الذي يُرسَل إليه حسن الوجه، حسن الاسم، وكان يقول: إذا أبردتم إليَّ بريداً، فليكن حسن الوجه، حسن الاسم»([٩٣]).

([٩٢]) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزيه، ص:١٠٠
([٩٣]) المصدر السابق، ص: ٣٢٣.

آخر
ما قيل في الحُبِّ

لَمَّا كان الحُبّ أجمل ما تطوي القلوب من مشاعر..

فإن الحديث عنه حديثٌ ذو شجون..

والكتابة فيه تطول...

وفي محاولة للتوقف، رأيتُ أن أكتفي بهذا القَدْر، على أن أختم بثمرة من ثمرات هذا البحث؛ كتاب - وقع في يدي أثناء تجوالي بين المصادر- بعنوان: «الحب في القرآن» للإمام الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي، كم تمنيت أن يقرأ هذا الكتاب كل مسلم، بل كل داعية ومرشد وإمام وخطيب وكل من له شرف الدخول في مجال الدعوة إلى الله والتعريف بدينه، وبِسُنّة رسوله.

قطفتُ من هذا الكتاب الماتع قطفة أهديها لأصحاب القلوب الراقية، وبخاصة مَن هم في مجال الدعوة، يقول الإمام الشهيد عن أثر محبة الله في سلوك الداعية أو المرشد:

من ثمار هيمنة محبة الله على قلوب رجال الدعوة غياب أي أهمية أو قيمة أو مركز عن فكر هذا الإنسان في حق نفسه،

أجل... فإن الحب الرباني إذا أخذ بمجامع النفس صيَّر صاحبه في حق نفسه لا شيء.

ذلك لأنه يرى دائماً، من خلال ما يشعر به من لوعة هذا الحب، أنه مُقَصِّر في أداء حقوق حبه هذا، إذ أن حبه لله يقتضيه أن يبذل كل ما يملك من طاقة ومال ومتاع في سبيل حبه، وأن يهجر النوم ويساهر الليل كله أداءً لبعض حقوق حبه، ولكنه يعود إلى نفسه وما يعلمه من الضعف الذي رُكِّبَ فيها فيعلم أنه عاجز عن النهوض بهذه الحقوق، فيورثه هذا العجز شعوراً بتفاهته وشدة تقصيره، ولا شيئيّته.

فَرَجُل الدعوة كلما ازداد معرفة بالله وتقرباً إليه، ازداد اتهاماً لنفسه، وشعوراً بتقصيره. ومصدر الخطأ الذي يقع فيه بعضهم ما يظنونه من أن مهمة الإرشاد إذ ينهض بها أحدهم، دليل على أنه يتبوأ بذلك مكانة متميزة عن الآخرين عند الله.

وإنه لَظَنّ باطل، بل إنه لخطأ قتّال!..

النهوض بمهام الدعوة ليس أكثر من وظيفة يسخِّر الله للقيام بها مَن يشاء، وربما كانت الحكمة من اختيار مَن يشاء لها ابتلاءً، وربما كانت تربية وتهذيباً للمرشد الداعي أكثر من أن تكون نصيحة للناس الذين يرشدهم!..

وكم من مرشد ضلَّ من خلال فتنة الإرشاد، واهتدى مريدوه بمعرفة الحق الذي تفتحت عقولهم لإدراكه، وتهيأت قلوبهم لمحبته، ولا شك أن في المرشدين مَن سيدخلهم الله في شفاعة بعض مريديهم.

.. والمُحب يعمل ببذل المجهود شوقاً إلى المحبوب، فيسهل عليه الصعب، ويقرب عليه البعيد، وتفنى القوى ولا يرى أنه وفّى بعهد المحبة، ولا قام بشكر النعمة.

إذن فمحبة العبد لله عز وجل، تجعله صغيراً في حق نفسه، وتُرِيه ضالته بل سوئه أمام ما يلاحظه من حقوق حبه لله تعالى.

والمحب ينظر في هذه الحالة إلى الآخرين، ممن ينهجون السبيل الموصل إلى مرضاة الله، فَيَرِي أنهم جميعاً أفضل منه وأقل منه تقصيراً في جنب الله، وربما كان في هؤلاء الذين يعتقد في حقهم هذه المزية، مَن هم مريدون أو تلاميذ له.

يقول الشيخ أحمد الرفاعي:

«أي سادة، أنا لست بِشَيخ، لستُ بِمُقَدَّم على هذا الجمع، لست بِواعظ، لست بِمعلم، حُشِرتُ مع فرعون وهامان إن خطر لي أني شيخ على أحد من خلق الله، إلا أن يتغمدني الله برحمته، فأكون كآحاد المسلمين».

ومن آثار محبة الله عز وجل الأدب مع عباده جميعاً، والشعور بقدر مشترك من الحب لهم، والتفريق بين شخص العاصي والمعصية التي تلبَّس بها، فالكراهية للمعصية، أما الشخص الذي تلبَّس بالمعصية فيجب الشعور بالشفقة عليه، ولا تكون الشفقة إلا نتيجة للحب.

لذلك علينا أن نجعل من الحب في الله شبكة اتصال بيننا وبين عباد الله جميعاً، تترجمها للطائعين منهم مشاعر التبجيل والتوقير لهم، وتترجمها للعُصاة منهم مشاعر الشفقة عليهم والرأفة بهم، وبذلك نسلك النهج الذي صار عليه سيدنا رسول الله في معاملته لعباد الله جميعاً.

ومن آثار محبة الإنسان (الداعية) لمولاه وخالقه جل جلاله، أن الحب يحمله على أن يهدر حظ نفسه في سبيل ما يراه من وجوب دعوة الآخرين إلى الله وتعريفهم بدينه، وألا يستثمر شيئاً من أعمال الدعوة لمغانمه ورغائبه الدنيوية.

إن حبه لله عز وجل يدفعه إلى الشعور بأنه خادم لدين الله عز وجل، قائم بوظيفة أقامه الله عليها، هي التعريف بدينه، وتحبيبه إلى قلوب الناس، وبذل كل ما يملك من طاقة معنوية وقدرات وممتلكات مادية، في حراسة دينه وتعبيد السبل أمام الناس إلى معرفته والاهتداء به. إذ أن الذي يُدخِل قبس الهداية في القلوب حال الداعي لا لسانه.

وإذا كانت محبة الإنسان لإنسان مثله أن يكثر المحب من ذكر محبوبه، وأن يستريح لذلك. فكذلك محبة الإنسان لربه تستدعي الإكثار من ذكره والسكون إلى المجالس التي يذكر فيها الله والارتياح لذلك.

وإذا كانت محبة الإنسان لشخص مثله أن يطيعه المحب فيما يأمره به ويدعوه إليه. فكذلك محبة الإنسان لله عز وجل، من أبرز آثارها الاستجابة لأوامره والتحقق بمجابّه.

وإذا كانت محبة الإنسان لإنسان مثله، أن يحب كل مَن يلوذ به، وينتمي إليه ويكون ذا صلة به. فكذلك محبته لله عز وجل، من أبرز آثارها ومستلزماتها محبة كل مَن حدثنا الله عز وجل عن انتسابهم إليه بالعبودية له، وكل مَن أنبأنا عن خلقه لهم بيده وأنه بث فيهم من روحه.

ثم إنك تعلم أن محبتهم تستلزم الأدب معهم؛ بأن تكون لطيفاً بهم ليِّناً معهم، مُقَدِراً أنهم ربما أصبحوا في المال خيراً منك، وكل هذا مما دعا الله إليه رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- في التعامل مع قومه سواء المشركين وغيرهم (٩٤)، ألم يقل له:

(٩٤) حاشا الوصف للأدب مع الآخرين، فلا يرِد فى حق رسول الله افتراض أن يصبحوا فى المآل خيراً منه، وإنما هو افتراض وراد بل مطلوب فى حقنا نحن وأمثالنا مع الآخرين

« فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ »

إن مَن استشرف هذا النوع القدسي من الحب -حب العبد لخالقه- ذاق من ذلك لذة دونها لذَّات المُتع الدنيوية كلها.

ولربما زجَّته هذا اللذة في حالة من السكر يتيه بسببها عن ذاته وضوابط التعامل والتحاور مع الآخرين.

بل ربما زجَّته هذه اللذة في عذاب يعاني منه الجسم ولا تشعر به الروح. مما يجعله يسكن إلى عذابه الجسدي منتشياً بنعيمه الروحي.

.. وكم في المحبين الربانيين مَن أهلكهم الحب، فراحوا ضحية نشوته الروحية الممزوجة بعذاب الجسم. وبوسعك أن تعلم أن هذا المزيج هو الذي جعل المحبين يؤكدون أن عذوبة الحب كامنة في عذابه.

وهذا هو قانون الحب وشأنه عندما يكون صادقاً وصافياً عن الشوائب، أياً كان المحبوب. فمن تعرض للحب بصدق لابدّ أن يذوق من عذوبة عذابه. ولربما تُودِي به عذوبته تلك إن هو ركن إليها إلى القتل.

فإن كنتَ ممن يبحث عن مذاقه، ويركن إلى وهجه، ويستريح إلى عذابه، وإن كنتَ ترحب بما قد ينالك من ورائه، فاجهد جهدك أن يكون عذابك في سبيل مَن يستحق ذلك منك، وإذا

كان لابدّ من القتل بِدائه، فليكن قتلك في سبيل مَن يحييك بهذا القتل، لا في سبيل مَن يذيقك مرارة الندم من جراء ركونك إلى حبه، وما أعذب ما يقوله سلطان العاشقين ابن الفارض، في هذا الصدد!:

ولقد أَقولُ لِمَنْ تحَرّشَ بالهوى

عرّضْتَ نفسَكَ للبَلا فاستهدف

أنتَ القَتِيْلُ بأيّ مَنْ أحبَبْتَهُ

فاختر لنَفْسِكَ في الهوى مَن تصطفي

إن من الغلو الباعث على الخسران، أن نستسلم لصواعق الحب، وعوارضه المهلكة، في سبيل مَن لا يملك أن يجزيك أجر هلاكك بحبه، وإنما يملك أن يذيقك لقاء حبك له كؤوساً من مرارة الندم.

وإن من الحق الباعث على السعادة والحياة الطيبة الخالدة أن تقدم حياتك قرباناً لحب مَن أورثك إياها، إنك ستمنحها له بيمين حبك، وستستردها ممتَّعة بأعلى درجات السعادة، من يمين فضله وإحسانه إليك. ([٩٥]).

([٩٥]) **الحب فى القرآن، محمد سعيد رمضان البوطي، ص: ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٠، ١٦١، ١٦٨، ١٦٩ بتصرف.**

الفهرس

المقدمة ٤
الحارث وبهيسة..... ١٢
قصة حُب لا ينساها الزمان ١٢
تاج محل..... ١٤
ضريح محبوبة يزوره الملايين ١٤
جميل وبثينة..... ١٧
عندما يحطم الحب الزمان والمكان ١٧
قيس ولبنى..... ٢٠
الحُب العُذري ٢٩
من الصحراء إلى القصور..... ٢٩
ابن زيدون وولادة ٣١
قصائد حُبّ أقوى من السِحر ٣١
المعتمد واعتماد..... ٣٩
تَرَف وتدلّل وحُبّ ٣٩
عُشَّاق ومُبْدِعون..... ٤٤
جَمال محبوبتك قَرض وسلفة! ٥٨
كيف يقع القلب في الحب..... ٦٣
أضرار العِشق ومثالبه..... ٦٥
مَلِكَة تعشق فتاها ٧٧
فوائد العشق ومنافعه..... ٨٤
الفصل بين مَن أباح العِشق ومَن منعه..... ٩٤

عُشَّاق لم يتمكنوا من كتم حبهم..... ٩٦
قلوب أحرقتها النساء..... ١٠٧
المرأة أخطر ما في حياة الإنسان ١١٣
عندما لا يكون في القلب مكان لمحبوب آخر..... ١١٨
في الطريق إلى المحبوب الأعظم ١٢٢
الحُبُّ سر التفوق... ..... ١٣١
علامات الحُب ١٣٥
كيف خرج مصطفى محمود من الحب..... ١٤٤
كيف يأتي الحُب؟..... ١٤٨
كيف لا أحبه؟ ١٥٤
هل يمكن أن يسكن القلبَ أكثرُ من محبوب؟ ١٦٢
عندما يسكن القلبَ المحبوبُ الأعظم والجميلُ الأوحد ١٦٦
كيف ينمو الحب..... ١٧٣
ثمار الحُب ١٧٦
المرء مع مَن يُحب ١٨٢
أمراض القلب وعلاجها ١٩٠
في الطريق إلى المحبوب الأكبر ١٩٣
آخر ما قيل في الحُبِّ ٢١٠
الفهرس..... ٢١٧
مصادر البحث..... ٢١٩

مصادر البحث

القرآن تدبر وعمل	أعدّه علماء مختصون في علوم القرآن
شمس العرب تسطع على الغرب	زيغريد هونكه
صيد الخاطر	ابن الجوزي
إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان	ابن القيم
الداء والدواء	ابن القيم
الحب في القرآن	الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي.
كيف نحب الله	مجدي الهلالي
مصارع العشاق	جعفر بن أحمد القاري البغدادي
طوق الحمامة	ابن حزم الأندلسي
الحب في التاريخ	سلامة موسى
القرآن محاولة فهم عصري	مصطفى محمود
ما وراء بوابة الموت	مصطفى محمود
تأملات في سورة يوسف	د/ محمود محمد عمارة
ففروا إلى الله	أبو ذر القلموني
حصوننا مهددة من الداخل	د/ محمد محمد حسين
لغز الموت	مصطفى محمود
عصر القرود	مصطفى محمود
كيف تتلذذ بالصلاة	مشاري الخراز
اعترافات	مصطفى محمود

أخطاء يجب أن تصحح	د/ جمال عبد الهادي محمد
كيف نفهم الإسلام	محمد الغزالي
فاتتني صلاة	إسلام جمال
مائة سؤال عن الإسلام	محمد الغزالي
الجانب العاطفي في الإسلام	محمد الغزالي
قصتي مع الحياة	خالد محمد خالد
إنسانيات محمد	خالد محمد خالد
هكذا تحدث القرآن	خالد محمد خالد
لقاء مع الرسول	خالد محمد خالد
الله	عباس العقاد
الشبكة العنكبوتية	
موقع الخيام	
موقع عبد الدائم كحيل	

كم لديك من السطور الجميلة التى أخذت
منك الكثير من المجهود والاعتناء
لكى تكون أفضل ما يمكن لتعبر بها عن شعور
داخلى لم تستطع أن تشاركه مع أحد غيرك.

مهما كانت سطورك
قصص... روايات... أشعار... مقالات
باللغة العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية

تواصل معنا
لتشارك سطورك مع العالم
٠١١٢٢٣٨٠٤٤٣